

الفصل الثاني  
دراسة حياة ابن أبي الدنيا

وهي في أربعة مباحث :

- المبحث الأول : نشأته وبيئته .
- المبحث الثاني : شيوخه .
- المبحث الثالث : مكانته العلمية .
- المبحث الرابع : آثاره العلمية .

obeikandi.com

## المبحث الأول

### نشأته وبيئته

١ - اسمه ونسبه:

عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس ، أبو بكر القرشي ، الأموي ، مولاهم (١) ، البغدادي الحنبلي (٢) ، المشهور بابن أبي الدنيا (٣) .

وُلد ببغداد سنة ٢٠٨ هـ - ٨٢٣ م ، في عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨ هـ) آخر العصر العباسي الأول ، في عهد الحضارة الإسلامية الذهبية .

٢ - تأثيره بالظاهرة العلمية :

كانت الثقافة والعلوم يُطفحُ بها المجتمع الإسلامي في كل ميدان من ميادين العلم والأدب . ولم يقتصر النشاط العلمي على العلوم الثقلية فحسب ، بل تجاوزها إلى العلوم العقلية ، وذلك بفضل فتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، وترجمة الكتب من اللغات الأجنبية ؛ وبخاصة اليونانية والفارسية والهندية إلى العربية .

ولقد كان طلب العلم والسعي في جمعه وتحصيله سمةً ذلك العصر . ومن مظاهر هذه الظاهرة الفذة : تتبع العلماء للسمع منهم والتحمل عنهم ، والرحلات العلمية الواسعة في مشارق الأرض ومغاربها ، وبهذا اتسعت مدارك وآفاق رجال هذا العصر ،

(١) قال ابن باطيش في « التميز والفصل » ١ / ٣٢٢ : « قيل له : القرشي ؛ لأنه مولى بنى أمية » . وذكر أن « القرشي » نسبة إلى « الجد » .

(٢) في هدية العارفين للبغدادي : ٥ / ٤٤١ ، « الشافعي » وهو خطأ .

(٣) مصادر ترجمته : ابن أبي حاتم - الجرح والتعديل : ٥ / ١٦٣ ، ابن النديم - الفهرست : ١ / ١٨٥ ،

الخطيب - تاريخ بغداد : ١٠ / ٨٩ - ٩١ ، ابن أبي يعلى - طبقات الحنابلة : ١ / ١٩٢ - ١٩٥ ،

المسعودي - مروج الذهب : ١ / ١٢ - ١٣ ، ٥٠ / ٥ ، ١٧٤ ، ابن الأثير - الكامل : ٧ / ١٥٥ ،

السمعاني - الأنساب : ١٠ / ٩٦ - ٩٧ ، ابن الجوزي - المنتظم : ٥ / ١٤٨ - ١٤٩ ، ابن باطيش -

التميز والفصل ١ / ٣٢٢ - ٣٢٣ ، المزى - تهذيب الكمال : ٧ / ٣٩٥ ب ، الذهبي - سير النبلاء :

١٣ / ٣٩٧ - ٤٠٤ ، وتهذيب الكمال ٢ / ١٨٤ ب ، وتذكرة الحفاظ : ٢ / ٦٧٧ - ٦٧٩ ، والعبر :

٢ / ٥٦ ، ومختصر دول الإسلام : ١ / ١٣٣ ، ابن كثير - البداية والنهاية : ١١ / ٧١ ، ابن تغرى

بردي - النجوم الزاهرة : ٣ / ٨٦ ، ابن شاکر الكتبي - فوات الوفيات : ١ / ٤٩٤ - ٤٩٥ ، ابن حجر -

تهذيب التهذيب : ٦ / ١٢ - ١٣ ، العليمي - المنهج الأحمد : ١ / ٧٣ - ٧٤ وغيرهم .

ونضجت ملكاتهم فى البحث والتصنيف ، وابتكروا مناهج راقية تُعدُّ من أرقى المناهج التى عرفها الفكر الإنسانى .

وكان تشجيع الخلفاء والأمراء لرجال العلم والأدب عاملاً كبيراً فى دفع عجلة العلم، وجذب الناس إليه ، فقد كان الخليفة المأمون يشارك فى كثير من العلوم ويمنح العطايا الجزيلة لمن يترجم كتب السابقين فى شتى المعارف الإنسانية ، من لغتها الأعجمية إلى اللغة العربية (١).

وكان لاتساع رقعة الدولة الإسلامية فى العصر العباسى ، ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثرٌ كبير فى حصول هذه النهضة العلمية التى لم يشهدها الشرق من قبل ، حيث كان جُلُّ أفراد الأمة طلاباً للعلم ، أو على الأقل أنصاراً للعلم ، مُحِبِّين لأهله .

قال الأستاذ نيكلسون : « وفى عهد الدولة العباسية كان الناس يجُوبون ثلاث قارات سعياً إلى موارد العلم والعرفان ، ليعودوا إلى بلادهم كالتحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين ، ثم يصنفون - بفضل ما بذلوه من جهد متصل - هذه المصنفات ، التى هى أشبه بدوائر للمعارف ، والتى كان لها أكبر الفضل فى إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل » (٢).

ونشأ ابن الدنيا ببغداد ، حاضرة العالم الإسلامى ومركز النشاط السياسى والحضارى ، وقد أشار إلى أهميتها الإمام الشافعى بعبارته الموجزة - وهو يسأل تلميذه يونس بن عبد الأعلى - : يا يونس ، دخلت بغداداً ؟ قال : قلت : لا . قال : « ما رأيت الدنيا » (٣).

لقد كانت بغداد تموج بالعلم ، وتزخر بالنُخبَةِ من علماء الأمة فى كل فن حتى أصبحت أمَّ مدائن الشرق فى ذلك العصر (٤) فساهمت عظمة الحضارة ، وكثرة العمران بالإضافة إلى عامل الدين - وهو أهمُّها - فى وفرة العلوم وكثرتها . والعلوم إنما تكثُرُ وتتوسعُ إذا كثر العمرانُ ، واتسعت الحضارةُ ؛ كما أشار إلى ذلك ابنُ خلدون فى قوله : « إنَّ تعليمَ العِلْمِ من جُملة الصنائع وإنَّ الصنائع إنما تكثر فى الأمصار ، وعلى

(١) انظر : الدكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام السياسى : ٣ / ٣٢٢ .

(٢) نيكلسون : lit Hist Of The Arabs P . 281 .

(٣) الخطيب البغدادى - تاريخ بغداد : ١ / ٣ - ٤ .

(٤) انظر : ١ للدكتور حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام : ٢ / ٣٧٧ .

نسبة عمرانها في الكثرة والقلة ، وهكذا كانت بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة ، لما كثر عمرانها صدر الإسلام ، واستوت فيها الحضارة ، زخرت فيها بحار العلم ، وتفنن أهلها في نشر التعليم ، وتصنيف العلوم ، واستنباط المسائل والفنون ، حتى أربوا على المتقدمين وفاقوا المتأخرين « (١) .

### ٣- تأثره بالظاهرة الزهدية :

كان العالم الإسلامي - في ذلك العصر - يعيش حالة من الاستقرار والبناء والرقي (٢) ، بعد الحياة الجهادية المليئة التي أمضاها سلفه في إرساء قواعد الدين ، والتمكين له في الجزيرة العربية ، وبعد الانتصارات الساحقة استتب الأمر للمسلمين ، ودانت لهم بلاد العرب بأسرها ، واندفع المسلمون - بعد النصر والاستقرار - إلى البناء الحضاري والعلمي ، بالإضافة إلى الحملات المتواصلة لتطهير بقية الأرض من رجس الشرك ، في مشارق الأرض ومغاربها .

وترتب على هذا التمكن والاستقرار ، رخاء وافر ، فتفتحت للمسلمين الدنيا بما فيها من نعيم ومتاع .

ومن سنن الله في خلقه أن الأمم والحضارات إذا خفت أعباؤها الجهادية ، وأشغلتها الرخاء والنعيم ، دب إليها الضعف والوهن ، وكثرت فيها الفتن والانقسامات . فهبَّ الغيورون من الأئمة وفضلاء العصر إلى تدارك هذا الخطر ، والتصدي له قبل استفحاله . فكانت تلك الحركة الواسعة الفريدة لجمع السنة والعلم من حمته وأهله . وبارك الله فيها فذاعت ، وانخرط في سلكها أفواج عظيمة من المسلمين ؛ من كبير وصغير ؛ وسائس ومسوس ؛ حتى بدا أن أغلب الناس أصبحوا طلاباً للعلم .

والانتصارات التي حققها الإسلام في ميدان الأخلاق والمثل ، وميدان الثبات والقوة ، دفعت بالكثير من الشعوب إلى اعتناقه وتمثله فهبت الأمة إلى استيعاب هذه الحشود العظيمة الضخمة المتلهفة ، فكانت المجتمعات الإسلامية في مكة والمدينة وبغداد والبصرة والكوفة والشام والقيروان ومدارس واسعة لهؤلاء الوافدين .

(١) ابن خلدون - المقدمة : ٣٦٢ - ٣٦٣ ( بتصرف ) .

(٢) لكن هذا الاستقرار كان نسبياً ، فقد كان يشوبه جو الفتن والمنازعات ودسائس الأعداء المتربصين من اليهود والنصارى والزنادقة ، انظر على سبيل المثال : « ثورة الزنج » في ترجمة الهالك طاغية الزنج الخارجي على ابن محمد العبدى . ( الذهبى - سير النبلاء : ١٣ / ١٢٩ - ١٣٦ ، ابن الأثير - الكامل : ٧ / ٢٠٥ - ٢١٥ ) .

وأرادت هذه الصفوة أن تبقى روح الجهاد متوقدة في نفوس المسلمين وأن لا تترك  
إلى الدعة ، والحُمول ، وأن لا تأنس بالرخاء وطيب العيش ، فتنسى غايتها ومهمتها ،  
وسبب وجودها ، فتحرك هؤلاء الكرام يُذكرون بهذه المعاني .

وكان من ثمار هذه الظاهرة التربوية الزهدية الموجهة ذلك الإقبال على الله ،  
والتسابق إلى مرضاته فعاشوا النصوص التي يجمعونها ويحفظونها تحفاً عن دار الغرور ،  
وإقبالاً على الله بكل الهمة . وكانوا خير قُودٍ لأبناء الأمة وناشئتها .

وأخذ هؤلاء الأئمة يواصلون السير في هذا الاتجاه ، فكان « كتاب الزهد »  
لعبد الله بن المبارك ( ت ١٨١ هـ ) و « كتاب الزهد » لهناد بن السرى ( ت ٢٤٣ هـ ) ،  
و « كتاب الزهد » لأحمد بن حنبل ( ت ٢٤١ هـ ) وغيرها في بابها كثير ، لا سيما  
الكتب التي تضمنتها الجوامع والسنن والمصنفات ، كالكتب الستة ومُصنّف عبد الرزاق  
الصنعاني .

فتأثر ابن أبي الدنيا بهذين المديّن الكريمين ، وحصل له شرف اللقاء والمعاصرة  
بإمام من أئمة العلم والزهد معاً ، ذلك هو الإمام أحمد بن حنبل . فرصد نفسه لطلب  
العلم ، وتخلّق بأخلاقه ، وسلك طريق التبعّد والزهد ، ولازم أهله والموصوفين به ،  
حتى أصبح من أعلام العصر ، وجمع من أخبارهم الشيء الكثير . قال ابن الجوزي :  
« وكان يقصد حديث الزهد والرقائق ، وكان لأجلها يكتب عن البرّجلاني ، ويترك عَقَان  
ابن مسلم ، وكان ذا مُروءة ، ثقة صدوقاً ، صنّف أكثر من مائة مصنف في الزهد » (١) ،  
وقال ابن تغرى بردى : « وكان عالماً زاهداً ورعاً عابداً » (٢) . وقال ابن النديم : « وكان  
ورعاً زاهداً عالماً بالأخبار والمرويات » (٣) .

في هذه المدينة العامرة الزاخرة ( بغداد ) نشأ ابن أبي الدنيا حيث المحدثُ والفقيه  
والمؤدّبُ والزاهدُ هم أبناء هذا المجتمع ومادته ، وكان للظاهرة العلمية والزهدية أبلغ  
الأثر في بناء شخصية ابن أبي الدنيا وتكوينه العلمي .

#### ٤ - بيته الصغرى :

كانت أسرة ابن أبي الدنيا أسرة خير وفضل ، وبيته بيت علم وصلاح ، فأبوه من  
العلماء المهتمين بالحديث وروايته ، مما ساهم في نشأته العلمية ، وتكوينه في وقت مبكر .

(١) ابن الجوزي - المنتظم : ١٤٨ / ٥ .

(٢) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة : ٨٦ / ٣ .

(٣) ابن النديم - الفهرست : ٢٦٢ .

فحببته أسرته في العلم والعلماء ، ودفعت به إلى حلق العلم ، فأقرأته القرآن ،  
والفقه ، وحببته في سماع الحديث وكتابه . ويحكم أنّ والده كان من العلماء المهتمين  
بالحديث وروايته ، فإنه دفع بابنه إلى السماع من أعلام العصر وحفاظه وسنّه دون  
البلوغ ، ومن هؤلاء الحفاظ : سعيد بن سليمان الواسطي - سعدويه - (ت ٢٢٩ هـ) ،  
وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) ، وخالد بن خدّاش البصري (ت ٢٢٣ هـ) ،  
فأدرك هؤلاء وطبقتهم إسناداً عالياً ، وشارك أصحاب الكتب الستة في كثير من  
شيوخهم . وقد دلّت بعض الروايات على أنّه استقلّ وأخذ يطوف على المشايخ بنفسه ،  
وسنّه دون العاشرة (١) .

وبهذه العناية المركزة والمبكرة من أسرة ابن أبي الدنيا ، وبما كان له من المهمة  
والإقبال الكبير استطاع أن يجمع علماً غزيراً ، ويتلمذ على مئات المشايخ من أئمة  
العصر وحفاظه . قال الذهبي : « وقد جمع شيخنا أبو حجاج الحفاظ أسماء شيوخه  
على المعجم ، وهم خلق كثير » (٢) ثم ذكر الذهبي جزءاً منهم ، فبلغ عددهم أربعة  
وتسعين شيخاً . وبلغ عدد شيوخه في « كتاب الصمت » وحده أكثر من مائتي شيخ ،  
وكذا في « كتاب العيال » .

وبهذا تكونت شخصية ابن أبي الدنيا العلمية ، فهو حنبلي المذهب ، سلفي  
العقيدة ، زهدى المشرب ، وعمل على بث هذه الروح الأخلاقية الإيمانية ، ورصد  
نفسه لها ، وأنشأ في تعقيدها وإذاعتها ما يزيد على مائة مصنف .

#### ٥ - أثره في مجتمعه :

. وكان لابن أبي الدنيا الأثر الكبير في مجتمعه ، تجلّى ذلك في تربيته لأولاد  
الخلفاء (٣) الذين هم من أهم طبقات المجتمع ، وممن سيتولى مقاليد أمور المسلمين ،  
وبصلاحهم تصلح البلاد ، ويسعد العباد . كما تجلّى في تدرّسه وتعليمه لعدد هائل من  
طلبة العلم ، وقد تخرج على يديه منهم جمعٌ غفير ، أصبحوا من أفراد الأمة علماً  
وصلاحاً .

(١) الخطيب البغدادي - تاريخ بغداد : ١٠ / ٩٠ ، ابن حجر - تهذيب التهذيب : ٦ / ١٣ ، وانظر ابن  
الجوزي : المنتظم : ٥ / ١٤٨ . وهي رواية إبراهيم الحري في السماع من عفان بن مسلم الصفار  
والمعروف عن عفان أنه اختلط في ٢١٩ هـ - أي قبل وفاته بعام أو أقل - وقد تركوا السماع منه بعد  
اختلاطه ، وسيأتي الكلام عليها في منزله العلمية .  
(٢) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٣٩٧ . (٣) انظر تفصيل ذلك في فصل : « مكانته العلمية » .

كما ساهم في الحركة الإصلاحية التي استهدفت تربية الجماهير العظيمة المقبلة على هذا الدين ، عن طريق التأليف والتصنيف مقتفياً أثر شيخه الإمام أحمد ومن قبله من أمثال عبد الله بن المبارك وسفيان الثوري ، فألف في التربية والزهد والرقائق مؤلفات جَمَّة ، وصفها الحافظ ابن كثير<sup>(١)</sup> فقال : « المشهور بالتصانيف الكثيرة النافعة الشائعة الذائعة في الرقاق وغيرها ، وهي تزيد على مائة مصنف ، وقيل : إنها نحو الثلاثمائة مُصَنَّفٌ » .

ويكفي للدلالة على حرصه في تسديد المسلمين ، وتحذيرهم من مزالق الشيطان قيامه بوضع هذه التأليف الوافرة في ميدان الأخلاق والتربية والإصلاح ، وعلى رأسها « كتاب الصمت وآداب اللسان »<sup>(٢)</sup> فإنه قد صنفه في فترة كانت مشحونة باللغو والانقسامات وما يترتب عليها من مشاحنات ، وهو أمر يفرزه الترفُّ الفكري ، وتعين عليه البطالة ، وفي مثل هذا الجو يزخرف الشيطان للناس حبَّ الكلام حتى تصبح شهوةً مُستحكمةً ، وَيُزَيَّنُ لكل قائل مقالته . وهذا ينبهنا - أيضاً - إلى أن الحافظ ابن أبي الدنيا كان مريباً مع كونه عالماً ، وداعيةً قصد بالتصنيف نصيحة الأمة ، والأخذ بيدها ، لا مجرد التصنيف فحسب ، فكانت مصنفاته هادفة ، لذا عم نفعها وذاع صيتها ، وعظم أثرها .

واستمر أبو بكر ابن أبي الدنيا مؤدياً لرسالته إلى آخر حياته ، وظلَّ يبت العلم ، ويتصدر لتدريسه ، وقد جاوز السبعين من عمره . إذ سمع منه كثير من الطلبة في آخر حياته ، حتى السنة التي توفى فيها . أمثال الختلى عبد الرحمن بن أحمد البغدادي<sup>(٣)</sup> (ت بضع وثلاثين وثلاثمائة) ، وابن الجراب إسماعيل بن يعقوب البغدادي البزاز<sup>(٤)</sup> (ت ٣٤٥ هـ) .

## ٦ - حزمه ورجولته :

لقد حفظت لنا بعض المصادر صورة مشرقة من صور الحزم والرجولة في شخصية ابن أبي الدنيا فإنه قال مرة : ( كنت أودَّبُ المكتفى فأقرأته يوماً « كتاب الفصيح » فأخطأ ، ففرصتُ خدَّه قرصة شديدة ، وانصرفت ، فلحقني رشيق الخادم فقال : يُقالُ

(١) البداية والنهاية : ١١ / ٧١ .

(٢) انظر : الفصل الذي عقدهنا عن الكتاب وأهميته .

(٣) انظر ترجمته في الفصل الثاني « شيوخه وتلاميذه » .

(٤) الخطيب - تاريخ بغداد : ٦ / ٣٠٤ ، الذهبي - سير أعلام النبلاء : ١٥ / ٤٩٧ - ٤٩٨ .

لك : ليس من التأديب سماعُ المكروه . قال : فقلت : سبحان الله أنا لا أسمع المكروه  
 غلامى ولا أمتى . قال : فخرج إلىّ ومعه كاغدٌ ، وقال : يقال لك : صدقت يا أبا  
 بكر ، وإذا كان يوم السبت تجيء على عادتك . فلما كان يوم السبت جثته ، فقلت :  
 أيها الأمير ، تقول عنى ما لم أقل ؟ قال : نعم يا مؤدبى من فعل ما لم يجب قيل عنه  
 ما لم يكن (١) .

وفى القصة دلالة صريحة على حزم ابن أبى الدنيا ، وعدم محاباته لأحد ، حتى  
 ولو كان ابن أمير المؤمنين . وفيها حرصه الشديد على إفادة طلابه ومتابعتهم وعدم  
 التهاون فى الأمور العلمية ، كما فيها ثقة الخليفة المعتضد به وبصدقه ، مما دعاه إلى أن  
 يكذب ابنه الأمير المكتفى ، فردّ لابن أبى الدنيا اعتباره ودعاه إلى مواصلة تأديب ابنه .  
 كما أن فيها منقبةً للمعتضد ، من رجاحة عقل ، وعدل وإنصاف ، فلم تأخذه العزّة  
 « وهو المسمّى بالسفّاح الثانى » حينما أهدى ابنه . بل أقرّ ابن أبى الدنيا على صنيعه ،  
 ودعاه لمواصلة تأديبه لابنه .

٧- ظرفته وأدبه :

ومما وصلنا كذلك من جوانب شخصية ابن أبى الدنيا هذه الصورة التى تدل على  
 ظرفته ، وخفة رُوحه ، وأدبه مع طلابه ، وحبّه لهم ، مع أنه كان من كبار الشخصيات  
 وقت ذاك علماً ومكانةً .

قال عمر بن سعد القراطيسى : « كنا عند باب ابن أبى الدنيا ننتظر ، فجاءت السماء  
 بالمطر ، فأتتنا جارية برقعة ، فقرأتها فإذا فيها مكتوب :

أنا مُشْتاقٌ إلى رُؤيتِكُمْ      يا أَخْلاني وَسَمْعى وَالْبَصْرَ  
 كيفَ أَنساکُمْ وَقَلْبى عِنْدِكُمْ      حالَ فِيمَا بَيْننا هَذَا المَطْرَ (٢)

٨- وراقه :

وكان للإمام ابن أبى الدنيا وراقٌ ، هو تلميذه أحمد بن محمد بن إسحاق بن

(١) ابن شاکر الکتبى - فوات الوفيات : ١ / ٤٩٤ - ٤٩٥ .

(٢) ابن الجوزى - المنتظم : ٥ / ١٤٨ ، ابن کثير - البداية والنهاية : ١١ / ٧١ .

يزيد، أبو بكر البغدادي واشتهر بأنه وراق ابن أبي الدنيا . حدث عن إسحاق بن حاتم العلاف ، وحميد بن الربيع ، ومحمد بن عبد الملك بن زنجويه ، وابن أبي الدنيا وغيرهم ، وروى عنه محمد بن علي بن حبيش الناقد ، ومحمد بن خلف الخلال ، وابن لؤلؤ الوراق<sup>(١)</sup> .

٩ - وفاته :

توفي الحافظ أبو بكر ابن أبي الدنيا يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة (٢) سنة ( ٢٨١ هـ - ٨٩٤ ) . وقد أجمع المؤرخون على وفاته في هذا العام ، سوى محمد بن شاكر الكتبي فأرخ وفاته سنة اثنتين وثمانين ومائتين<sup>(٣)</sup> .

وقد أورد الخطيب رواية تذكر وفاته سنة ( ٢٨٠ هـ ) ، ثم نقدها قال : « قال القاضى أبو الحسن : وبكرت إلى إسماعيل بن إسحاق القاضى يوم مات ابن أبي الدنيا ، فقلت له : أعز الله القاضى مات ابن أبي الدنيا ، فقال : رحم الله أبا بكر ، مات معه علمٌ كثيرٌ ، يا غلام امض إلى يوسف حتى يصلى عليه ، فحضر يوسف بن يعقوب ، فصلى عليه في الشونيزية ، ودفن فيها سنة ثمانين » .

قال الخطيب : هذا وهمٌ . كانت وفاة ابن أبي الدنيا في سنة إحدى وثمانين<sup>(٤)</sup> . ثم دلك على ذلك بروايتين صحيحتين .

والراجح أنه توفي في جمادى الأولى لأربع عشرة ليلة خلت من سنة إحدى وثمانين ومائتين ببغداد ، لاتفاق أغلب الروايات على ذلك ، وصلى عليه القاضى يوسف بن يعقوب البصرى ، ودفن بالشونيزية . رحمه الله رحمة واسعة ، وألحقنا بالصالحين من عباده .

١٠ - أولاده :

لم تذكر المصادر شيئاً عن أولاد ابن أبي الدنيا ، والذي نفهمه من بعض الروايات

(١) الخطيب - تاريخ بغداد : ٤ / ٣٩١ .

(٢) ابن النديم - الفهرست : ٢٦٢ ، ابن الجوزى - المنتظم : ٥ / ١٤٩ ، دائرة المعارف الإسلامية ١ / ١٩٨ ، وعن أرخ وفاته في جمادى الأولى من السنة المذكورة : الخطيب - تاريخ بغداد : ١٠ / ٩١ ، وابن كثير - البداية والنهاية : ١١ / ٧١ ، والذهبي - العبر : ٢ / ٥٦ ، وتذكرة الحفاظ : ٢ / ٦٧٩ ، وأرخه المسعودى في المحرم ، مروج الذهب : ٤ / ١٨٣ .

(٣) محمد شاكر الكتبي : فوات الوفيات ١ / ٤٩٤ . (٤) الخطيب - تاريخ بغداد ١٠ / ٩١ .

أنه ليس له أولاد ذكور . فقد أورد الخطيب البغدادي قصة طلب الخليفة الموفق رؤية ابن أبي الدنيا (١) ، وفيها أنّ الخليفة أمر له بخمسة عشر ديناراً في كل شهر . قال أبو ذر القاسم بن داود : فكنت أقبضها لابن أبي الدنيا إلى أن مات . فالرواية يُشَمُّ منها أنه ليس له ولد ، وإلا لما أوكّل تلميذه القاسم بن داود ليقبضها له إلى حين وفاته ، والله أعلم .

---

(١) الخطيب - تاريخ بغداد : ٩٠ / ١٠ .

obeikandi.com

## المبحث الثاني

### شيوخه

إنَّ تَبْكَيرَ ابنِ أبي الدنيا في طلب العلم ، وهو في سن التمييز - دون العاشرة - وحفاوة أسرته به ، وتشجيعهم إياه ، وكون والده من أهل العلم والرواية ، والبيئة التي نشأ بها ، كل هذه الأسباب ساعدت ابن أبي الدنيا على أن يتحمل مثل هذا العلم الوفير الغزير .

واستطاع أن يُدرك إسنادهً عالياً ، وتمكّن من السماع - وسنه دون البلوغ - من الإمام الحافظ خالد بن خِدَاش البصرى (ت ٢٢٣هـ) ، وابن أبي الأسود الإمام الحافظ الثبّت عبد الله بن محمد البصرى (ت ٢٢٣هـ) ، والإمام الكبير أبي عُبَيْد القاسم بن سلام البغدادي (ت ٢٢٤هـ) ، والإمام إبراهيم بن مهدي المصيصى البغدادي (ت ٢٢٥هـ) ، والإمام الحافظ المعمر سعيد بن سليمان سَعْدُوِيه ، نزيل بغداد (ت ٢٢٥هـ) .

وتخرج بأعلام الحفاظ ؛ مثل الإمام المُسندِ علي بن الجعد (ت ٢٣٠هـ) صاحب المُسند ، والإمام الحافظ أحمد بن منيع (ت ٢٢٤هـ) ، والإمام خلف بن هشام البزار المقرئ البغدادي (ت ٢٢٩هـ) ، والمؤرخ الحافظ محمد بن سعد أبي عبد الله البغدادي ، كاتب الواقدي (ت ٢٣٠هـ) .

وبهذه الهمة تحصّل له السماع والتحمّل عن مئات من جهاذة العلماء . قال الذهبي : « وقد جمع شيخنا أبو الحجاج الحافظ أسماء شيوخه على المعجم ، وهم خلق كثير » (١) .

ثم عدّ الذهبي جملة منهم ، على سبيل الاختصار ، فبلغوا أربعة وتسعين شيخاً . وعدتهم عند الحافظ المزى مائة وتسعة عشر شيخاً ، ذكرهم مرتبين على حروف المعجم (٢) .

(١) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٣٩٧ .

(٢) المزى - تهذيب الكمال ٢ / ٧٣٦ نسخة دار الكتب المصرية المصورة .

وقد تحَصَّلَ لى من شيوخه - فى « كتاب الصمت » وحده - مائتان وخمسة عشر شيخاً من شيوخه الذين سمع منهم سماعاً مباشراً ، وكذا هو الحال فى « كتاب العيال » تقريباً .

فقد كان لرغبته فى طلب العلم ، وهتمته فى جمعه وتحصيله - بعد جمعه لحديث الأئمة - يتتبع حملة العلم من الغرباء والمغمورين ، ومن هم دونه من العلماء والمحدثين ليُشيع نهمته ويملاً جَعْبَتَهُ ، مما جعل الذهبى يقولُ فيه (١) :

« وىروى عن خلق كثير لا يُعرَفون ، وعن طائفة من المتأخرين كىحيى بن أبى طالب ، وأبى قلابة الرقاشى ، وأبى حاتم الرأزى ، ومحمد بن إسماعيل الترمذى ، وعباس الدورى » .

وقد اخترنا أن نتحدث عن خمسة من شيوخه بشىء من التفصيل ممن كان لهم أثر ظاهر فى صقل شخصيته العلمية وتكوينه .

١ - محمد بن عبيد - والد ابن أبى الدنيا :

نشأ ابن أبى الدنيا وتعلم فى كنف ورعاية وتربية والده ، الإمام محمد بن عبيد بن سفيان ، مولى بنى أمية .

روى عن هُشيم بن بشير ، وجريز بن عبد الحميد ، وسفيان بن عيينة ، وأبى بكر ابن عيَّاش ، وهشام بن محمد الكلبي ، ومحمد بن جعفر المراني .

وكان له فى ابن أبى الدنيا أعظم الأثر ، وخصوصاً فى جانبى الحديث والزهد ، فقد سمع منه حديثاً كثيراً ، وقد بلغ عدد الروايات التى سمعها منه ابن أبى الدنيا فى هذا الكتاب عشر روايات (٢) . وتغلب على مروياته الزهديات والرقائق . قال الخطيب البغدادي (٣) : « روى عنه ابنه أبو بكر - يعنى ابن أبى الدنيا - أحاديث مستقيمة » .

٢ - الإمام الزاهد محمد بن الحسين البرجُلانى :

اتصل ابن أبى الدنيا فى أول نشأته العلمية اتصالاً وثيقاً بإمام كبير من أئمة الزهد . ذلك هو الشيخ الإمام أبو جعفر محمد بن الحسين بن أبى الشيخ البرجُلانى (٤) صاحب

(١) الذهبى - سير النبلاء : ١٣ / ٣٩٩ .

(٢) انظر : النصوص التالية : ١ ، ٧٧ ، ١١٧ ، ١٥٥ ، ٢٠١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٣) الخطيب - تاريخ بغداد : ٢ / ٣٧٠ .

(٤) الخطيب - تاريخ بغداد : ٢ / ٢٢٢ - ٢٢٣ ، أبو يعلى - طبقات الحنابلة : ١ / ٢٩٠ ، الذهبى - سير

النبلاء : ١١ / ١١٢ .

التأليف في الزهد والرقائق .

وقد صحبه ابنُ أبي الدنيا ، وهو في العاشرة من عمره - تقريباً - كما يفهم من رواية إبراهيم الحربي<sup>(١)</sup> . ومن شدة تعلقه به ، وتأثره بمشربه كان يدعُ عَفَّانَ بن مسلم المحدث الحافظ الثقة ، ويذهب إلى البرِّجُلاني ، مع أنَّ طلاب العلم كانوا يقصدون عَفَّانَ من كل مكان .

وكان للبرِّجُلاني أثران كبيران في مسار حياة ابن أبي الدنيا العلمية ؛ جانب الزهد والعناية بالتراث التربوي الأخلاقي ، وجانب الاتجاه المذهبي . فقد كان حنبلي المذهب متأثراً بالإمام أحمد ، وكان الإمام يحبه ويشنئ عليه . قال أبو حاتم : « سأل رجل أحمد بن حنبل عن شيء من حديث الزهد ؟ فقال : عليك بمحمد بن الحسين البرِّجُلاني »<sup>(٢)</sup> . وقد صنَّفه ابنُ الجوزي في مَنْ حَدَّثَ عن الإمام أحمد من مشايخه ، ومن الأكابر<sup>(٣)</sup> ، وأورد له رواية من طريق ابن أبي الدنيا عنه عن أحمد مرفوعة<sup>(٤)</sup> .

وانتقد الحافظُ ابن حجر الذهبي على إيراد ترجمته البرِّجُلاني في « الميزان » فقال : « وما لذكر هذا الرجل الفاضل الحافظ - يعنى في الضعفاء - وقد ذكره ابن حبان في الثقات »<sup>(٥)</sup> .

قال الذهبي : « روى عنه ابن أبي الدنيا كثيراً »<sup>(٦)</sup> .

وهو الذي حجب لابن أبي الدنيا زيارة أحمد ، والسماع منه ، والتأثر بمذهبه ، توفي ببغداد سنة ٢٣٨ هـ .

٣- الإمام الرباني أحمد بن حنبل الشيباني<sup>(٧)</sup> :

أحد الأئمة الأعلام علماً وفضلاً وزهداً وصلاحاً ، شيخ الإسلام ، كان له الأثر البالغ في الجيل الذي عاصره ، وانتفع من علمه وزهده خلائق لا يُحصون ، ومنهم ابنُ أبي الدنيا .

فقد لازمه وانتفع من فقهه وزهده ، وأخذ عنه منهج التربية بأحاديث الزهد

(١) انظر : فصل قيمته العلمية ، في المواخذات عليه . (٢) ابن أبي حاتم - الجرح والتعديل : ٧ / ٢٢٩ .

(٣) ابن الجوزي - مناقب الإمام أحمد : ٨٣ . (٤) المصدر نفسه : ٨٨ .

(٥) ابن حجر - لسان الميزان : ٥ / ١٣٧ . (٦) الذهبي - سير النبلاء : ١١ / ١١٢ .

(٧) أبو نعيم - حلية الأولياء : ٩ / ١٦١ - ٢٣٣ ، الخطيب - تاريخ بغداد : ٤ / ٤١٢ ، ابن أبي يعلى -

طبقات الخنابلة : ١ / ٤ - ٢٠ .

والرافق ، وتأثر بكتابه « الزهد » وألف على غراره وسماه بنفس الاسم (١) وكان يسأل الإمام عن الفتاوى الفقهية - وسنه في حدود العشرين - وقد سأله مرة : ما أقول بين التكبيرتين في صلاة العيد ؟ فقال أحمد : محمد الله - عز وجل - وتصلى على النبي ﷺ (٢).

وسأله : متى يُصلى على السقط ؟ فقال : « إذا كان لأربعة أشهر صَلَّى عليه وَسَمِّي (٣) . وقد عدّه ابنُ الجوزي في جملة مَنْ حَدَّثَ عن أحمد على الإطلاق من الشيوخ والأصحاب (٤) . ثم ذكره في أعيان أصحابه وأتباعه (٥) .

٤ - أبو عبيد القاسم بن سلام (٦) :

الإمام الحافظ المجتهد ذو الفنون ، صنف التصانيف الموثقة التي سارت بها الركبان . قال الذهبي : « وهو من أئمة الاجتهاد » (٧) .

قال ابن سعد : « كان أبو عبيد مؤدباً صاحب نحوٍ وعربيةٍ ، وطلبٍ للحديث والفقهِ » (٨) .

حدث عنه ابن أبي الدنيا ولازمه وانتفع منه ، وكان لقاؤه به مبكراً فهو من قُدماء شيوخه (٩) ، إذ دخل بغدادَ واستقرَّ بها سنين طويلة بعد سنة ٢١٣ هـ وكان صاحب إيمان متين وصلح كبير ، قال أبو بكر ابن الأنباري : « كان أبو عبيد - رحمه الله - يقسم الليل أثلاثاً : فيُصلى ثلثه ، وينام ثلثه ، ويُصنّف الكتب ثلثه » (١٠) . فاستفاد منه في هذا الجانب .

أما الأثر البالغ الذي حصل لابن أبي الدنيا من خلال ملازمته لأبي عبيد ، فهو حبه وتعلُّقه بمهمة التأديب والتربية للناشئة . وقد كان أبو عبيد مؤدباً كبيراً أدبَ أهل الأمير هرثمة بن أعين (١١) .

- 
- (١) انظر : فصل « آثاره العلمية » .  
(٢) ابن أبي يعلى - طبقات الحنابلة : ١ / ١٩٤ - ١٩٥ .  
(٣) ابن أبي الدنيا - كتاب العيال ق ٩٩ ، ابن أبي يعلى - طبقات الحنابلة : ١ / ١٩٣ ، ابن الجوزي - مناقب الإمام أحمد : ٥١٠ .  
(٤) ابن الجوزي - مناقب الإمام أحمد : ٩٨ . (٥) المصدر نفسه : ٥١٠ .  
(٦) ابن سعد - طبقات ابن سعد : ٧ / ٣٥٥ ، الفاسي - العقد الثمين : ٧ / ٢٣ - ٢٥ ، الذهبي - سير النبلاء : ١٠ / ٤٩٠ - ٥٠٩ .  
(٧) الذهبي - سير النبلاء : ١٠ / ٤٩١ .  
(٨) ابن سعد - الطبقات : ٧ / ٣٥٥ .  
(٩) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٣٩٨ .  
(١٠) الذهبي - سير النبلاء : ١٠ / ٤٩٣ .

ومهمة التأديب هذه كانت لا تُوسدُ إلا إلى مَنْ توفرت فيه صفات جامعة للزهد والعلم والتربية . فأصبح ابنُ الدنيا فيما بعد مؤدباً كبيراً ، حتى أدب أولاد الخلفاء . وكان من آثار هذه الصحبة تَمَكَّنَ ابن أبي الدنيا من اللغة ، فكان يُدرِّسُ أبناءَ الخلفاء وغيرهم « كتاب الفصيح » للإمام ثعلب .

٥ - أبو عبد الله محمد بن سعد كاتب الواقدي (١):

الحافظ العلامة الحجة ، أبو عبد الله البغدادي ، مصنف « الطبقات الكبرى » كان كثير العلم ، كثير الحديث والرواية ، كثير الكتُب ، كتب الحديث والفقه والغريب (٢) . قال الذهبي: « كان من أوعية العلم، ومن نظر في « الطبقات » خضع لعلمه » (٣) . وقد حدث عنه ابنُ أبي الدنيا ولازمه ، واستفاد منه العلم بالتاريخ والرواية ، وكان لقاؤه به مبكراً ، وذلك لأنَّ ابن سعد توفي سنة (٢٣٠هـ) (٤) .

وكان من ثمرات هذه الصحبة النافعة أن تخرج ابنُ أبي الدنيا به ، فكانت له عناية كبيرة بالتاريخ والسِّير ، نتج عنها هذه المؤلفات الجيدة التي ألفها في هذا الفن (٥) ، حتى قال فيه ابنُ شاکر الكتبي : « هو أحد الثقات المصنفين للأخبار والسِّير » (٦) . وساق الخطيب البغدادي في ترجمة أسد بن عمرو البجلي إسناداً ، وفيه : « حدثنا ابن أبي الدنيا ، حدثنا محمد بن سعد ، وقال : مات أسد بن عمرو البجلي سنة ١٩٠ هـ » (٧) .

(١) الكتبي - فوات الوفيات : ١ / ٤٩٤ - ٤٩٥ .

(٢) الخطيب - تاريخ بغداد : ٥ / ٣٢١ - ٣٢٢ ، ابن خلكان - وفيات الأعيان : ٤ / ٣٥١ - ٣٥٢ ، الذهبي - تذكرة الحفاظ : ٢ / ٤٢٥ .

(٣) الخطيب - تاريخ بغداد : ٥ / ٣٢٢ .

(٤) الذهبي - سير النبلاء : ١٠ / ٦٦٥ .

(٥) انظر فصل « آثاره العلمية » .

(٦) الكتبي - فوات الوفيات : ١ / ٤٩٤ .

(٧) الخطيب - تاريخ بغداد : ١ / ١٩ .

obeikandi.com

## المبحث الثالث

### مكانته العلمية

#### أولاً : ثقافته :

إنَّ خير ما يُصور منزلة ابن أبي الدنيا العلمية ، واتجاهاته التربوية والإصلاحية هو آثاره الكثيرة التي خلفها ، وما لَقِيَتْهُ مِنْ اهتمام العلماء والدارسينَ بها في العصور المتعاقبة .

ويُضَمُّ إلى هذا سيرةُ ابن أبي الدنيا العلمية وثقافته العالية ، ذات الوجوه المتعددة التي أخرجت هذه الثمار الوافرة ، فكان حافظاً بارعاً ، ومحدثاً جهيداً ، وفقياً عارفاً ، ومؤرخاً جامعاً ، وكان مُكثراً من رواية الشعر ، لغويّاً متمكناً من العربية .  
وهذه صورةٌ عن ثقافته ومعرفته ، وتمكُّنه في العلوم .

#### ١ - القراءات :

اهتمَّ ابن أبي الدنيا بقراءة القرآن الكريم ، واعتنى بدراسة علم القراءات فاتصل بالإمام الحافظ خلف بن هشام المقرئ<sup>(١)</sup> (ت ٢٢٩هـ) ، وكان من أئمة هذا الشأن ، فسمع منه ولازمه وسنَّه دون العشرين ، وتميز ابن أبي الدنيا عن الخلائق التي لا تُحصى ممن تخرج بهذا الإمام ، فتمكن هو من أفراد مصنفٍ في قراءة خلف ، أسماه : « حُرُوفُ خَلْفٍ » . فكان له فضل تعييده هذه القراءة وتصنيفها كما ألف كتباً أخرى في هذا الفن<sup>(٢)</sup> ، تدلُّ على تقدمه فيه ، وتمكُّنه منه .

#### ٢ - الحديث :

وكذلك الحديث ، فإنَّ ابن أبي الدنيا نهض لطلب الحديث وسماعه ، وسنَّه دون العاشرة ، واعتنى به عنايةً فائقةً ، فسمع كثرة من الكتبِ والمسانيدِ والسُّنَنِ ، ولقى المئات من الشيوخ والأئمة فتحمل منهم علماً غزيراً ، وكان من حُبِّه للحديث ، واستغراقه في طلبه أن سمع ممن هم دون طبقتة ، قال الذهبي : « حتى كتب عن أقرانه ، بل عن

(٢) انظر : « علم القراءات » في « مؤلفاته » .

(١) انظر ترجمته في : « فصل شيوخه » .

أصغر منه « (١) » .

ولتمكنه من هذا العلم الشريف أطلق عليه لقب « الحافظ » ومصنفاته كلها - على تنوع مادتها وفنونها - تُعتبر كُتُباً حديثية ، وذلك لأنها مروية بالإسناد وقد تلقاها من أفواه مشايخه . وله رأى مُعتبر عند الأئمة في نقد الرجال ، وهو ما يُسمى بعلم « الجرح والتعديل » . قال ابن حجر في ترجمة « الحسن بن ذكوان » قال ابن أبي الدنيا : « وكان يحيى يُحدث عنه ، وليس عندي بالقوى » (٢) وقال في ترجمة « محمد بن فراس أبي هشام الضبعي » : « قال ابن أبي الدنيا : بصرى ثقة » (٣) ولولا أن حكمه معتبر عند الأئمة في هذا الشأن لما أوردوه في مصنفاتهم ولما اعتبروه . وقد كان يصدر أحكاماً على بعض مَنْ لقيه من الشيوخ لتقييم حديثهم ، وبيان درجتهم ، من ذلك قوله في أحد شيوخه : « حدثنا الوليد بن سفيان العطاردي البصرى ، وكان ثقة » (٤) . وتبين لى أن حكم ابن أبي الدنيا على هذا الشيخ بالتعديل ذو قيمة وأهمية بالغة ، فإنى لم أقف على مَنْ تكلم فيه سواه .

### ٣- اللغة والأدب :

عنى الحافظ ابن أبي الدنيا بالعربية منذ نشأته ، وتخرج بعلم من أعلامها الكبار ، ذلك هو الإمام المجتهد أبو عبيد القاسم بن سلام (٥) (ت ٢٢٤هـ) .

وقد تمكن من اللغة حتى كان يُدرِّس أمهاتها لطلابه ، حكى عن نفسه مرة فقال : (كنت أودَّبُ المكتفى ، فأقرأته « كتاب الفصيح » ) (٦) .

كما أنه اهتم بالشعر والأدب ، وتخرج بالشاعر الأديب الشيخ محمود بن الحسن الوراق البغدادي (٧) (ت ٢٢٥هـ) .

وله مصنفات في الأدب تدل على تمكنه فيه (٨) ، وقد وصفه الذهبي بأنه كان « أدبياً » . وكان يتعاطى نظم الشعر ، ونظمه فيه (٩) متوسط ، ويغلب عليه جانب المواعظ والحكم ، وكان يرتجله أحياناً . ومما وقَّفت عليه من نظم هذه المقاطع :

(١) الذهبي - تذهيب تهذيب الكمال : ٢ / ١٨٤ ب .

(٢) ابن حجر - تهذيب التهذيب : ٢ / ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) المصدر نفسه ٩ / ٣٩٨ .

(٤) ابن أبي الدنيا - كتاب الإخوان : رقم ١٣٩ .

(٥) الكشي - فوات الوفيات : ١ / ٤٩٤ - ٤٩٥ .

(٦) انظر ترجمته فى : « فصل شيوخه » .

(٧) انظر : « فصل مؤلفاته » .

(٨) انظر ترجمته فى : « فصل شيوخه » .

(٩) الذهبي - العبر : ٢ / ٥٦ .

قال عمر بن سعد القراطيسي : « كنا عند باب ابن أبي الدنيا ننتظر ، فجاءت السماء بالمطر ، فأتتنا جارية برقعة ، فقرأتها فإذا فيها مكتوب (١) :

أنا مُشتاقٌ إلى رؤيتكم يا أخلائي وَسَمِعِي وَالْبَصَرَ  
كيف أنساكم وَقَلْبِي عِنْدَكُمْ؟ حالَ فيما بيننا هذا المَطْرُ

ومن نظمه أيضاً :

إذا أنت صاحبت الرجال فكن فتي إذا كنت مملوكاً لكل رفيق  
وكن [مثل طعم] (٢) الماء عذباً وبارداً على الكبد الحري لكل صديق (٣)

وكتب إلى المعتضد وابنه المكتفي - وكان مؤدبهما :

إنَّ حقَّ التأديبِ حقُّ الأبوَّةِ عندَ أهلِ الحجى وأهلِ المروءة  
وأحقُّ الأنامِ أنْ يعرفوا ذا كَ ويرعوه أهلُ بيتِ النبوة (٤)

ودخل ابن أبي الدنيا على الحافظ يوسف القاضي ، فسأله عن قوته ؟

فقال للقاضي : أجدني كما قال سيويه :

لا يَنْفَعُ الهَلْيُونَ والأَطْرِيقُلُ  
انْخَرَقَ الأَعْلَى وَخَارَ الأَسْفَلُ  
وَنَحْنُ فِي جِدِّ وَأَنْتَ تَهْزِلُ

فقال ابن أبي الدنيا :

أراني في انتقاص كل يوم ولا يبقى مع النقصان شئ  
طوى العصران ما نشره مني فأخلق جدتي نشر وطى (٥)

(١) ابن الجوزي - المنتظم : ٥ / ١٤٨ ، ابن كثير - البداية والنهاية : ١١ / ٧١ .

(٢) في ( الكنش ) : وكن كطعم الماء . والظاهر أن ما أثبتناه هو الصواب وذلك حتى يستقيم الوزن ، وهو من البحر الطويل .

(٣) « كنش لبعض المشاركة » ورقة ٢٩ رقم ١٨٦٥١ . المكتبة الوطنية بالقطرين ، فهرس الشيخ حسن حسني عبد الوهاب ص ٢٨٥ ، وقد جردت الكتاب كله فلم أعثر على النص ، وكان المخطوط متهاكاً عبثت فيه الأرضة أيما عبث ، وهو ناقص من آخره ، فلعل الأبيات في السقط .

(٤) الكتبي - فوات الوفيات : ١ / ٤٩٤ .

(٥) الخطيب - تاريخ بغداد : ١٤ / ٣١١ ، الذهبي - سير أعلام النبلاء : ١٤ / ٨٦ .

وأخرج البيهقي في « الزهد الكبير » عن أبي عبد الله الصفار قال : أنشدني أبو بكر ابن أبي الدنيا :

إذا ما مضى القرنُ الذي أنتَ منهمُ وخلفتَ في قرنٍ فأنتَ غريبُ  
وإنَّ امرأً قد سارَ خمسينَ حِجَّةً إلى منهلٍ من وردهِ لقريبٍ<sup>(١)</sup>

وأخرج الخرائطي عن علي بن الحسين ، قال : أنشدني ابن أبي الدنيا :

لو كنتُ أعرفُ فوقَ الشكرِ منزلةً أعلَى منَ الشكرِ عندَ الله في الثمنِ  
إذا منحتُكها مني مهذبةً حدوا على حدو ما أوليتَ من حسنٍ<sup>(٢)</sup>

واهتمام ابن أبي الدنيا بالشعر ، وولعه فيه ظاهر في مصنفاته ، فإنه يُكثر من إيراده فيها ، ويودع المتخير الجيد من مروياته الشرعية في أبوابها اللائقة بها ، ولا يكاد يخلو مُصنّف من مُصنفاته من الأبيات الشعرية الموجهة ، وهي كثيرة جداً في بعض مصنفاته<sup>(٣)</sup> .

#### ٤ - التاريخ والسير والأخبار :

لقد كانت عناية ابن أبي الدنيا بالتاريخ والسير والأخبار عنايةً فائقةً ، فبادر لجمعه وسماعه وسنّه دونَ العشرين ، ومضى في جمع هذا العلم وتحصيله وتبعبه حتى برع فيه . وتخرج بالإمام أبي عبد الله محمد بن سعد البغدادي كاتب الواقدي ، ومصنّف « الطبقات الكبرى » وكان من العلماء الحفاظ<sup>(٤)</sup> فلازمه وانتفع به ، كما تخرج بعلم آخر من أعلام هذا الفن ذلك هو الإمام الحافظ أبو حسان الزيادي الحسن بن عثمان البغدادي ، مؤرخ العصر<sup>(٥)</sup> .

وما لبث ابن أبي الدنيا أن أصبح إماماً كبيراً من أئمة هذا الشأن ، شهد له العلماء بذلك ، قال المسعودي : « وقد أُلّفَ الناسُ كتباً في التاريخ والسير ، ممّن سَلَفَ

(١) البيهقي - الزهد الكبير : ٦٤٥ . (٢) الخرائطي - كتاب فضيلة الشكر لله : ٦٣ .

(٣) انظر على سبيل المثال : « الإشراف في منازل الأشراف » . تشتبرتي رقم (٤٤٢٧) . وفي مكتبي صورة عنه .

(٤) انظر ترجمته في : « فصل شيوخه » .

(٥) الذهبي - سير النبلاء : ١١ / ٤٩٦ - ٤٩٨ وقد اصطحب الخطيب « تاريخ أبي حسان الزيادي » معه حينما رحل إلى دمشق وذلك لأهميته ، انظر : المالكي - تسمية ما ورد به الخطيب البغدادي رقم ٣٣٦ .

وخلّف . . . « (١) وعدّ منهم ابن أبي الدنيا .

وقال ابن النديم : « وكان ورعاً زاهداً ، عالماً بالأخبار والروايات » (٢) .

وقال الذهبي : « وكان صدوقاً أديباً إخبارياً » (٣) . وقال ابن شاکر الکتبی : « وهو أحد الثقات المصنفين للأخبار والسير » (٤) ، وكذا عدّه السّخاوی فی المؤرّخين (٥) وقد نقل الأئمة أقواله فی كتبهم التاريخية ، وفي الجرح والتعديل (٦) وغيره .

قال الحافظ الذهبي ، فی ترجمة « سفیان الثوری » : « وكذا نسبه ابن أبي الدنيا عن محمد بن خلف التيمي ، غير أنه أسقط منه منقذاً والحارث ، وزاد بعد مسروق حمزة ، والباقي سواء » (٧) .

وساق الخطيب فی ترجمة « أسد بن عمرو الواسطي » إسناداً ، وفيه : « حدثنا ابن أبي الدنيا ، حدثنا ابن سعد قال : مات أسد بن عمرو البجلي سنة ١٩٠ هـ » (٨) .

قال ابن حجر فی ترجمة « عبد الله بن عمر العمرى » : « قال ابن أبي الدنيا : كان يُكنى أبا القاسم ، فتركها ، واكتنى أبا عبد الرحمن . وأرخ وفاته مثل ابن سعد » (٩) . وقد أكثر ابن الجوزي - الاقتباس منه فی كتابه « المصباح المضيء فی خلافة المستضيء » حتى بلغ ما نقله عنه خمسين موضعاً (١٠) . وكذا سبقه الخطيب البغدادي فی « تاريخ بغداد » وابن عساکر فی « تاريخ دمشق » وابن كثير فی « البداية والنهاية » وغيرهم (١١) .

وقد حكى الخطيب البغدادي حكاية طويلة جرت لابن أبي الدنيا مع الخليفة الموفق وابنه المكتفي ، تدل على تمكنه من علمه ، وطول باعه فی التاريخ والأخبار ، وموجزها : أن المكتفي كان لا يُحبُّ الكتاب ويستثقله ، فلما وُكِّلَ ابن أبي الدنيا بتأديبه أحبه وانشرح له ، فلماً رأى الخليفة ذلك ، طلب رؤيته ، قال ابن أبي الدنيا : « فأحضرتُ ، فقربتُ قريباً من سريره ، وابتدأتُ فی أخبار الخلفاء ومواعظهم فبكى بكاءً شديداً .

(١) المسعودي - مروج الذهب : ١ / ٢٠ - ٢١ . (٢) ابن النديم - الفهرست : ٢٦٢ .

(٣) الذهبي - العبر : ٢ / ٥٦ . (٤) الکتبی - فوات الوفيات : ١ / ٤٩٤ .

(٥) السخاوی - الإعلان بالتوبيخ : ٤٢٦ ، روزنثال - علم التاريخ : ٦٩٠ .

(٦) انظر « علم الحديث » من هذا الفصل . (٧) الذهبي - سير النبلاء : ٧ / ٢٣٠ .

(٨) الخطيب - تاريخ بغداد : ١ / ١٩ . (٩) ابن حجر - تهذيب التهذيب : ٥ / ٣٢٧ .

(١٠) ابن الجوزي - المصباح المضيء : ١ / ١٠٧ ، ١٤٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٤ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩٧ ،

٢ / ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ١٠٠ ، ٢٣٢ ، ٢٥٠ .

... إلخ .

(١١) الدكتور أكرم العمرى - موارد الخطيب ص ١٥٩ - ١٦٢ .

قال: وابتدأتُ فقرأتُ عليه نوادرَ الأعراب ، قال : فضحك ضحكاً كثيراً ، ثمَّ قال : شهرتني ، شهرتني « ثم أمر له الخليفةُ خمسة عشر ديناراً في كلِّ شهر ، فكان يقبضُها حتى مات (١) .

وقد صنَّفَ ابنُ أبي الدنيا مصنفاتٍ جليلاً في هذا الفن ، تدل على طولِ بابه فيه ، ووفرة علمه . فألَّفَ في تراجم الأشراف ، والأولياء ، وأخبار قريش ، وأخبار الأعراب ، وتاريخ الخلفاء .

كما ألَّفَ في السير ودلائل النبوة ، وأعلامها ، وأخبار الملوك . وأفرد مصنفات في سير الأعلام كلُّ على حدة ، فوضع كتباً في أخبار أويس القرني ، وأخبار معاوية ، وأخبار الثوري ، وفضائل علي بن أبي طالب ، كما أفرد مصنفات في الأحداث الأليمة التي رزئت بها الأمة كمقتل عثمان ومقتل علي ، والحسين ، وطلحة ، والزبير ، وابن الزبير ، وسعيد بن جبير ، وغير ذلك كثير (٢) . حتى أنَّ الخطيب البغدادي توسع في الاقتباس من ابن أبي الدنيا ، فقد اقتبس منه (٧٧) نصاً منها (٣٣) نصاً تتعلق بأخبار الخلفاء وكذا ابن عساكر في « تاريخ دمشق » وابن كثير في « البداية والنهاية » (٣) .

وكان ابن أبي الدنيا بارعاً في العلوم الأخرى كالفقه ، وله فيه المصنفات الحسان ، فألف في الأضحية ، وذم المسكر ، والرهائن ، وصدقة الفطر ، والعيدنين ، والقصاص ، والمناسك وغير ذلك (٤) .

\* \* \*

وكذلك في العقائد ، فإنه صنَّفَ فيها مؤلفات نافعة مثل « البعث والنشور » و« دلائل النبوة » و« صفة الجنة » و« صفة النار » و« صفة الصراط » و« الموقف » وغير ذلك (٥) .

وله مشاركةٌ حسنةٌ في علوم أخرى ، وإنما فصلنا الكلامَ في بعضها لتقدمه وجلالته فيها ، ولأنها مجال تخصصه وإبداعه .

(١) الخطيب - تاريخ بغداد : ١٠ / ٩٠ .

(٢) انظر : « فصل مؤلفاته » .

(٣) انظر : موارد الخطيب - للدكتور أكرم العمري ص ١٥٩ - ١٦٢ .

(٤) و (٥) انظر « فصل مؤلفاته » .

## ٥ - الزهد والرقائق :

أما علمُ الزهدِ والرقائقِ والأخلاقِ فهو فارسُ ميدانِهِ ، وحاملُ لوائِهِ ، وجامعُ شتاتِهِ ، والمعروفُ به ، « ومن أكثر من شيءٍ عُرِفَ به » .

وكان قد صحبَ الإمامَ الزاهدَ محمدَ بنَ الحسينِ البرجُلاني - صاحبَ المُصنَّفاتِ في الزهدِ والرقائقِ - سنَّه دون العاشرةِ ، فلزمه ملازمةً دائمةً حتى تخرَّجَ به ، كما تخرَّجَ بإمامٍ من أئمةِ هذه المدرسةِ ذلك هو الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ . قال ابنُ الجوزي : « وكان يقصِّدُ حديثَ الزهدِ والرقائقِ ، وكان لأجلها يكتبُ عن البرجُلاني ، ويتركُ عفانَ ، وكان ذا مروءة ، ثقةً صدوقاً ، صنَّفَ أكثرَ من مائةِ مُصنَّفٍ في الزهدِ » (١) . وقال ابنُ كثيرٍ : « المُصنَّفُ في كلِّ فنٍّ ، المشهورُ بالتصانيفِ الكثيرةِ النافعةِ الشائعةِ الذائعةِ في الرُّقائِقِ وغيرها وهي تزيدُ على مائةِ مُصنَّفٍ ، وقيل : إنها نحوُ الثلاثمائةِ مُصنَّفٍ » (٢) . وقال المزيُّ : « صاحبُ التصانيفِ المشهورةِ المُفيدةِ » (٣) وهكذا توأطأتِ شهاداتُ الأئمةِ في الثناءِ على مُصنَّفاته الزهديَّةِ ، وبأنها شاعتِ بين الناسِ ، وعظُمَ نفعُها عندهم . وأصبحت مرجعاً لكلِّ مَنْ كتبَ في هذه الأبوابِ ممَّن خلفه من العلماءِ . قال ابنُ تغري بردي : « وله التصانيفُ الحسانُ ، والناسُ بعده عيالٌ عليه في الفنونِ التي جمعها » (٤) . ونَدَرَ أن يكونَ هناك بابٌ من أبوابِ الزهدِ والأخلاقِ إلا وله فيه مؤلَّفٌ مُستقلٌّ .

ومن ذلك كتابُ « الصمتُ وآدابُ اللسانِ » و « كتابُ الزهدِ » و « كتابُ محاسبةِ النَّفسِ » و « كتابُ اليقينِ » ، و « كتابُ ذمِّ الدُّنيا » وغيرُ ذلك من المُصنَّفاتِ الكثيرةِ جداً في هذا البابِ (٥) .

ثانياً : تأديبه أولادِ الخلفاءِ وغيرهم :

كان ابنُ أبي الدنيا إلى ما ذكرناه من رصانته العلميَّةِ ، وموسوعيته ، ووفرةِ عطائه ، أستاذاً ماهراً ومُدرباً قديراً ، اصطفاه الخلفاءُ لتأديبِ أبنائهم وتثقيفهم ؛ لأنَّ التأديبَ في ذلك الوقتِ عملٌ علميٌّ جليلٌ ، لا يليه إلا كُلُّ عالمٍ ضليعٍ باللُغةِ والأدبِ (٦) ، ولا يُسندُ إلا إلى أهلِ النُّبلِ والاستقامةِ ، ليكونَ تأديبُهُم بالقُدوةِ قِبَلَ الكلمةِ . وكان ابنُ

(١) ابن الجوزي - المتظم : ١٤٨ / ٥ .

(٢) ابن كثير - البداية والنهاية : ١١ / ٧١ .

(٣) المزي - تهذيب الكمال : ٣٩٥ / ٧ ب .

(٤) ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة : ٨٦ / ٣ .

(٥) انظر : « فصل مؤلفاته » في كتاب « الصمت وآداب اللسان » : ٨٧ - ١١٠ بتحقيقنا .

(٦) الذهبي - سير النبلاء ، ١٣ / ٤٠٠ ، عبد المجيد قطامش - مقدمة كتاب الأمثال : ص ٦ .

أبى الدنيا قد توفرت فيه هذه الصفاتُ بالإضافة إلى أنه كان شخصيةً محبوبةً ومؤثرةً وكان إذا جالسَ أحداً ، إن شاء أضحكه ، وإن شاء أبكاه في آن واحد (١) .

أما أولادُ الخلفاء الذين أدبهم ابن أبى الدنيا فقد أغفلت المصادرُ ذكرهم واكتفت بالتعميم ، ولم تُسمَ منهم سوى اثنين وهما الخليفةُ المعتضدُ ، وابنهُ علىُّ بن المعتضدِ الملقبُ بالمكتفى بالله . وأظنُّ السببَ يرجعُ إلى أنَّ هذينِ حكماً فاشتهرا ، وبقيةُ أبناءِ الخلفاءِ أهملوا لعدمِ شهرتهم ، واكتفى المؤرخون بالتعميم .

قال ابنُ الجوزى : « وقد أدب غير واحد من أولاد الخلفاء ، منهم المعتضدُ وعلىُّ ابن المعتضدِ ، وكان يُجرى له في كلِّ شهرٍ خمسة عشر ديناراً » (٢) .

ومنَّ ذكر أنه أدبَ المعتضدَ ، ولم يزدْ عليه : الإمامُ الذهبيُّ ، قال : « قال ابن كامل : هو مؤدبُ المعتضدِ » (٣) وزاد في « سير النبلاء » : « كان يؤدبُ غير واحدٍ من أولاد الخلفاء » (٤) .

ومن ذكر أنه أدبَ المكتفى بالله ، ولم يزدْ : المسعودى (٥) .

وأما من عممَ فقال : أدب غير واحدٍ من أولاد الخلفاء ، فالخطيبُ (٦) والمزى (٧) ، وابن حجر (٨) وغيرهم .

والذى نخرج به من هذه النصوصِ أنَّ ابن أبى الدنيا قد أدبَ المعتضدَ وابنه المكتفى بالله وغيرهم من أولاد الخلفاء ، بالإضافة إلى تأديبه وتربيته وثقافته لجمهورٍ كبيرٍ من تلامذته ، ممن أصبح لهم شأنٌ كبيرٌ فيما بعدُ ، ولاسيما والحافظُ أبو بكر ابن أبى الدنيا واصلُ تصدُّره للإقراء حتى العام الذى توفى فيه - رحمه الله .

(١) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٤٠٠ .

(٢) ابن الجوزى - المنتظم : ٥ / ١٤٨ ، وذكر ذلك أيضاً ابن كثير - البداية والنهاية : ١١ / ٧١ ، وابن شاعر الكتبي - فوات الوفيات : ١ / ٤٩٤ ، وابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة : ٣ / ٨٦ ، وابن باطيش - التمييز والفصل ١ / ٣٢٢ .

(٣) الذهبي - طبقات الحفاظ : ٢ / ٦٧٨ - سير النبلاء : ١٣ / ٤٠٠ .

(٤) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٤٠٠ .

(٥) المسعودى - مروج الذهب : ١ / ٢٠ ، ٢١ ، ٨ / ١٨٣ .

(٦) الخطيب - تاريخ بغداد : ١٠ / ٨٩ . (٧) المزى - تهذيب الكمال : ٧ / ٣٩٥ ب .

(٨) ابن حجر - تهذيب التهذيب : ٦ / ١٢ .

## أثر ابن أبي الدنيا في الخلفاء الذين أدبهم :

١ - الخليفة المعتضد بالله ، أبو العباس أحمد بن طلحة<sup>(١)</sup> ، بويغ سنة ٢٧٩ هـ وسنّه إحدى وثلاثين سنة .

وصف المسعودي حال الرعية في أيامه فقال : « ولما أفضت الخلافة إلى المعتضد بالله سكنت الفتن ، وصلحت البلدان ، وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهذا الهرج ، وساله كل مخالف ، وكان مظفراً قد دانت له الأمور ، وانفتح له الشرق والغرب ... » (٢) .

كان مراعيًا للحدود الشرعية ، قال إسماعيل القاضي : « دخلت على المعتضد ، وعلى رأسه أحداث روم ملاح ، فنظرت إليهم ، فرأيت المعتضد أتاملهم ، فلما أردت الانصراف ، أشار إلي ، ثم قال : « أيها القاضي ، والله ما حللت سراويلي على حرام قط » (٣) .

وقال إسماعيل القاضي : « دخلت على المعتضد ، فدفع إلي كتاباً ، فنظرت فيه ، فإذا قد جمع له فيه الرخص من زكّل العلماء وما احتج به كل منهم لنفسه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين مصنف هذا الكتاب زنديق . فقال : ألم تصح هذه الأحاديث ؟ قلت : الأحاديث على ما رويت ، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة ، ومن أباح المتعة لم يبح الغناء والمسكر ، وما من عالم إلا وله زلة ، ومن جمع زكّل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه . فأمر المعتضد فأحرق ذلك الكتاب (٤) .

ووصفه الذهبي فقال : « أسقط المكس ، ونشر العدل ، وقبّل الظلم ، وكان يُسمى السفاح الثاني ، أحيا رميم الخلافة التي ضعفت من مقتل المتوكل » (٥) « واكتسب المعتضد محبة الناس عندما أصدر أوامره بإبطال ديوان الموارث ، وبأن يُورث ذوو الأرحام ، كما منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها . ومنع القصاص والمنجمين من الجلوس في الطريق ، وصلى بالناس صلاة الأضحى (٦) .

(١) المسعودي - مروج الذهب : ٤ / ١٤٣ - ١٨٥ ، الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٤٦٣ - ٤٧٩ .

(٢) المسعودي - مروج الذهب : ٤ / ١٤٣ . (٣) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٤٦٥ .

(٤) البيهقي - السنن الكبرى : ١٠ / ٢١١ ، الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٤٦٥ .

(٥) المصدر نفسه : ١٣ / ٤٦٥ .

(٦) السيوطي - تاريخ الخلفاء : ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

وقد أحمَدَ فتناً عظيمةً ، وكان يسيرُ إلى أصحابها بنفسه (١) . فكانت أيامه كثيرة الأمنِ والرخاءِ » .

« وفي سنة ٢٨٢ هـ أبطل المعتضدُ ، وقيدَ النيرانِ ، وشعارَ النيروزِ » (٢) تُوفى سنة (٢٨٩ هـ) .

٢ - الخليفة المكتفى بالله ، أبو محمدٍ علي بن المعتضدِ بالله ، وُلد سنة (٢٦٤ هـ) وبويع بالخلافة سنة ٢٨٩ هـ .

وكان حسن السيرة محبوباً عند الرعية ، سار سيرةً جميلةً فأحبه الناسُ ، ودَعُوا له . قال الذهبي : « هَدَمَ المظالمِ التي عملها أبوه ، وصيَّرها مساجدَ ، وردَّ أملاكَ الناسِ إليهم ، وكان أبوه قد أخذها لعمل قصرٍ ، وأحسن السيرةَ ، فأحبه الناسُ » (٣) ، « وصلى المكتفى بالناس يوم الأضحى » (٤) ، ومات شاباً له من العمر إحدى وثلاثين سنة ، وكانت وفاته سنة (٢٩٥ هـ) (٥) .

ثالثاً: رحلاته في طلب العلم :

لم أجد في كُتب التراجم - التي وقفتُ عليها - ذكراً لرحلات ابن أبي الدنيا في طلبِ العلمِ وسماعه ، وهو جانبٌ مهمٌ ، أهمله كلُّ من ترجم له ، كما أهملَ الكثيرُ من جوانب حياته الأخرى ، فلم يدوّنوا لنا سوى بيانات يسيرة ، يصعب على الباحث في سيرته ، أن يلتمس جوانبَ حياته المتنوعة من خلالها .

ولكن قد ظهر لي أثناء دراستي لمشايقه ، وتبع التفتُّ المشورة في سيرته وحياته ، أن أحكمَ في شيء من الثقة بأن ابن أبي الدنيا لم يرحل خارج العراق إلا لأداء فريضة الحج ، فكان معظم سماعه ببغداد ، سواءً من شيوخها النازلين بها ، أو من الشيوخ الوافدين عليها من البلاد الأخرى ، فتكون رحلاته ضمن حدود العراق كالبصرة والكوفة والموصل . وقد استتجنا ذلك من روايته عن مشايخ بصريين وكوفيين وموصليين . ويؤكد صحة ما ذهبنا إليه : قولُ الإمام الذهبي : « أنه كان قليل الرحلة » (٦) . أي أنه لم ينف عنه الرحلة ، وإنما وصفها بالقلّة .

(١) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٤٧١ - ٤٧٦ . (٢) المصدر نفسه : ١٣ / ٤٧٣ .

(٣) الخطيب - تاريخ بغداد : ١١ / ٣١٦ - ٣١٨ ، الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٤٧٩ - ٤٨٥ .

(٤) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٤٨٠ ، السيوطي - تاريخ الخلفاء : ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٥) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٤٨٠ . (٦) الذهبي - سير النبلاء : ١٣ / ٣٩٩ .

ويبدو أن المسوخ له في العزوف عن الرحلة ، والعكوف على بغداد هو ذلك العَدَدُ الهائلُ من العلماء النَّازلين فيها ، وفيهم ساداتُ الأمة ثقةٌ وَعَدَالَةٌ ، وضبطاً وإتقاناً ، وعلواً في السَّنَدِ ، مع وفرةٍ في المرويات ، كأحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) وسعيد بن سليمان الواسطي سَعْدَوِيَه (ت ٢٢٥هـ) وخالد بن خدّاش (ت ٢٢٣هـ) وأحمد بن مَنِيع (ت ٢٤٤هـ) وعلى بن الجَعْد (ت ٢٣٠هـ) ويحيى بن معين (ت ٢٣٣هـ) .

أضف إلى هذا أن بغداد كانت مركز الخلافة والحضارة والعلوم ، فكان العلماء يأتونها من كُلِّ مكانٍ ، وكتابُ الخطيب البغدادي « تاريخ بغداد » خير شاهد على هذا . فاستثمر ابن أبي الدنيا هذه المزية لبلده ، فكان يتتبع العلماء . الواردين عليها ، فسمع من البخارى (ت ٢٥٦هـ) والترمذى (ت ٢٧٩هـ) وإسحاق بن أبى إسرائيل المروزى (ت ٢٤٥هـ) وخلقٍ كثير .

وصنيع ابن أبي الدنيا يتسَّقُ مع آداب طالب الحديث . قال الإمام النووى : « ثم يُفرغُ جُهْدَهُ لتحصيله - أى الحديث - بالسماع من شيوخ بلده إسناداً وعلماً وشهرةً ودينياً وغيره ، فإذا فرغَ فليرحل على عادة الحُفَاطِ المُبرزين » (١) .

وعلى الرغم مما تقدم ، فإنَّ للرحلة - إذا صحت فيها النية - فوائد جمة . ففضلاً عن أنها بابٌ جليلٌ من أبواب الجهاد والاجتهاد فى طلب العلم ، فهى تُمكنُ صاحبها من جمع مادة وافرة ، وإدراك الشيوخ المُعمرين فيتحصلُ علوُ الإسناد - ولقاء الحُفَاطِ المُتقنين والمذاكرةُ لهم والاستفادةُ منهم .

رابعاً : آراء العلماء فيه :

احتل ابن أبي الدنيا فى الحديث والآداب والسير مكانةً مرموقةً فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وصفه الأئمة فى عداد الحُفَاطِ الكبار ، واصطفته الخلفاء لتأديب أولادهم وتثقيفهم ، وكان طلبة العلم يقصدونه من كُلِّ مكانٍ ليمعروا منه .

قال الدكتور حسن إبراهيم : « وقد نبغَ فى عهد المعتضد كثيرٌ من الكتاب والمفكرين والشعراء نخصُّ بالذكر منهم ابن أبى الدنيا (ت ٢٨١هـ) مُثَقَّفُ الخليفة المكتفى فى حدائته .. » (٢) .

(١) النووى - تقريب الإرشاد : ص ٢٩ ، وانظر : السيوطى - تدريب الراوى : ٢ / ١٤٢ .

(٢) د . حسن إبراهيم - تاريخ الإسلام : ٣ / ١٨ .

ومن وثَّقه وأبان عن فضله ومنزلته من النقاد المعاصرين له ابنُ أبي حاتم قال :  
« كتبت عنه مع أبي ، قال : وسُئِلَ أبي عنه ، فقال : بغدادى صدوق » (١) .

وقال أبو علي صالح بن محمد البغداديُّ ، المُلقب بجزرةً : « صدوق وكان  
يختلفُ معنا . . . » (٢) .

وقال القاضي أبو الحسن : وبكرت إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي يوم مات ابن  
أبي الدنيا ، فقلت : أعزَّ الله القاضي ، مات ابنُ أبي الدنيا فقال : « رحم الله ابن  
أبي الدنيا ، مات معه علمٌ كثيرٌ » .

أما مَنْ وثَّقه وأثنى عليه من الأئمة ممن خلفوه : المؤرخ المسعودي إذ ذكره في  
وفيات (٢٨١ هـ) وذكر أنه مؤدب المكتفى بالله ، وصاحبُ الكتب المصنفة في الزُّهد  
وغيره ، ثم قال : « وإنما نذكر وفاة هؤلاء لدخولهم في التاريخ ، وحمل الناس العلم  
عنهم من الآثار عن رسول الله ﷺ » (٣) .

وقال ابن الجوزي : « كان ذا مروءة ثقة صدوقاً » (٤) .

وقال ابن النديم : « وكان ورعاً عالماً بالأخبار والروايات » (٥) .

وقال إسماعيل بن باطيش : « وكان ثقة صدوقاً » (٦) .

وقال الذهبي : « المحدث العالم الصدوق » (٧) وقال أيضاً : « كان صدوقاً أديباً  
إخبارياً » (٨) .

وقال ابن كثير : الحافظ المصنف في كل فن ، المشهور بالتصانيف الكثيرة النافعة  
الشائعة الذائعة في الرقاق وغيرها . . . ثم قال : « وكان صدوقاً حافظاً ذا مروءة » (٩) .

وقال ابن شاكر الكتبي : « وهو أحد الثقاتِ المصنِّفِينَ للأخبار والسير » (١٠) .

---

(١) ابن أبي حاتم - الجرح والتعديل : ١٦٣ / ٥ .

(٢) الخطيب - تاريخ بغداد : ٩٠ / ١٠ ، ابن الجوزي - المنتظم : ١٤٨ / ٥ ، ابن حجر - تهذيب  
التهذيب : ١٣ / ٦ ، وكلامه بقية سنورها في الاعتراضات .

(٣) المسعودي : مروج الذهب : ١٨٣ / ٤ - ١٨٤ . (٤) ابن الجوزي - المنتظم : ١٤٨ / ٥ .

(٥) ابن النديم - الفهرست : ص ٢٦٢ . (٦) ابن باطيش - التمييز والفصل : ٣٢٢ / ١ .

(٧) الذهبي - تذكرة الحفاظ : ٦٧٧ / ٢ .

(٨) الذهبي - العبر : ٥٦ / ٢ ، تهذيب تهذيب الكمال : ١٨٤ / ٢ ب ، وقال : « الحافظ الاخبارى » .

(٩) ابن كثير - البداية والنهاية : ٧١ / ١١ . (١٠) الكتبي - فوات الوفيات : ٤٩٤ / ١ .

وقال ابن تغرى بردى : « وكان عالماً زاهداً ورعاً عابداً ، والناسُ بعده عيالٌ عليه فى الفنونِ التى جمعها ، وروى عنه خلقٌ كثيرٌ ، واتفقوا على ثِقتهِ وصدقهِ وأمانتهِ » (١) .  
 وأماً مَنْ أطلق عليه لقب الحافظ - بالإضافة إلى من تقدم - الإمام المزي (٢) ،  
 وابن حجر العسقلانى (٣) ، والسخاوى (٤) ، وقال مرتضى الزبيدى : « حافظ الدنيا أبو بكر ابن أبى الدنيا » (٥) .

والمعروف عند أئمة الحديث أن لَقَبَ « الحافظ » لا يُطَلَقُ إلا على من أتقن هذا الفن ، وأوتى سعة فى معرفته ، ووقف على غوامضه ودقائقه .

ويكفيه فضلاً وفخراً أن شيخاً كبيراً من مشايخه قد أخذَ عنه وهو الحافظ الكبيرُ الحارثُ بن أبى أسامة ( ت ٢٨٢ هـ ) (٦) صاحبُ المسندِ وممن روى عنه من النجباء الجهابذة الإمامُ ابن ماجة محمد بن يزيد القزوينى ( ت ٢٧٣ هـ ) صاحبُ السنن ، وابن أبى حاتم عبد الرحمن بن محمد الرازى ( ت ٣٢٧ هـ ) صاحبُ الجرح والتعديل ، وابن خزيمة محمد بن إسحاق الحافظ ( ت ٣١١ هـ ) صاحبُ الصحيح ، وخلق كثيرٌ .  
 ذكرنا طرفاً منهم فى « فصل تلاميذه » .

مؤاخذاتهم عليه :

وقد أخذ بعضُ الأئمة ممن عاصر ابن أبى الدنيا ، ورافقه فى الطلب بعضَ المؤاخذات عليه ، وهى وإن كان مبالغ فيها ، فإنها فى نفس الوقت واردةٌ عليه .  
 وسأذكر هذه الاعتراضات مع نقدها ، لنضعها فى إطارها الصحيح ، حتى تأخذَ حجمها الحقيقى من غير مبالغة أو تساهلٍ .

١ - أخذهُم على ابن أبى الدنيا سماعه من محمد بن إسحاق البلخى . والذى أخذهُ بها صاحبه فى الطلب ، الإمام الحافظ صالح بن محمد البغدady الملقب بجزرة .  
 وتابعه فى إيرادها الخطيب البغدady ، وابن الجوزى وابن حجر .

قال صالح بن محمد جزرة - وقد سئل عن ابن أبى الدنيا - : « صدوقٌ ، وكان

(١) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة : ٣ / ٨٦ . (٢) المزي - تهذيب الكمال : ٧ / ٣٩٥ ب .

(٣) ابن حجر - تهذيب التهذيب : ٦ / ١٢ .

(٤) السخاوى - الإعلان بالتويخ : ص ٤٢٦ ، روزنثال - علم التاريخ : ص ٩٦٠ ، فتح المغيث : ١ / ١٩٠ .

(٥) الزبيدى - تحف السادة المتقين : ٧ / ٨٨ . (٦) الذهبى - سير النبلاء : ١٣ / ٣٩٩ .

يختلف معنا ، إلا أنه كان يسمع من إنسان يُقال له : محمد بن إسحاق بلخي ، وكان يضع للكلام إسناداً ، وكان كذاباً يروي أحاديث من ذات نفسه مناكير « (١) .

ومحمد بن إسحاق البلخي هذا هو اللؤلؤي ، قال فيه الذهبي : « الإمام الحافظ البارع » (٢) وساق فيه روايتين : إحداهما تُثني عليه . وقال في الأخرى : « ذكره الخطيب وأشار إلى تضعيفه » (٣) وأدخل في كتابه تذكرة الحفاظ (٤) . ثم ذكره في « ميزان الاعتدال » وقال : « وكان أحد الحفاظ إلا أن صالح جزرة قال : كذاب . وقال الخطيب : لم يكن يُوثقُ به . وقال أحمد بن سيار المروزي : كان آية من الآيات في الحفظ ، وكان لا يكلمه أحد إلا علاه في كل فن . وقال ابن عدى : لا أرى حديثه يُشبه حديث أهل الصدق » (٥) .

فاستبان لنا أن الرجلَ ضعيفٌ ، ولكنه حافظ كبيرٌ ، بارعٌ في فنون العلم . وهبه متهماً بإجماع الأمة متروكاً ، فإن ذلك ليس بقادح في من روى عنه من الحفاظ الكبار ، وقد روى ابن أبي الدنيا عن رجل آخر اسمه محمد بن إسحاق الضبي ، وقد تركه ابن أبي حاتم (٦) ، وروى عن جمهور عريض من المشايخ في بعضهم ضعف متفاوتٌ . فما الغرابة في ذلك وقد درج المُحدثون على ذلك ، فإنهم قد يتحملون الحديث والعلم عن الشيوخ عامة ، فإذا حدثوا بالحلال والحرام تشددوا ، وإذا حدثوا بفضائل الأعمال تساهلوا ، وقد يوردون هذه الطرق الضعيفة في باب المتابعات والشواهد . أو يحملون عنهم ولا يؤدون .

فانتقاد الأئمة لابن أبي الدنيا لسماعه من محمد بن إسحاق أو غيره ، فيه تهويلٌ لأمرٍ شاركه فيه الأئمة من المُحدثين ، فالإمام أحمد بن حنبل قد روى عن علي بن مجاهد بن مسلم القاضي الكابلي ، وهو من شيوخه المباشرين ، وليس في شيوخه أضعف منه ، قال ابن معين : كان يضع الحديث . وكذبه يحيى بن الضريس ، وقال السليمانى : فيه نظر . وقال ابن حجر : متروكٌ (٧) . والترمذي أخرج لعطاء بن العجلان

(١) الخطيب - تاريخ بغداد : ١٠ / ٩٠ ، ابن الجوزي - المنتظم : ٥ / ١٤٨ - ١٤٩ ، ابن حجر - تهذيب التهذيب : ١٣ / ٦ .

(٢) و (٣) الذهبي - سير النبلاء : ١١ / ٤٤٩ . (٤) الذهبي - تذكرة الحفاظ : ٢ / ٤٢٦ .

(٥) الذهبي - ميزان الاعتدال : ٣ / ٤٧٥ ، ٤٧٦ .

(٦) ابن الجوزي - المنتظم : ٥ / ١٤٨ - ١٤٩ ، وانظر : ترجمته في ميزان الاعتدال : ٣ / ٤٧٧ .

(٧) انظر : ترجمته في ميزان الاعتدال : ٣ / ١٥٢ ، وتقريب التهذيب : ٢ / ٤٣ .

الحنفى وهو متروك<sup>١</sup> ، بل أطلق عليه ابن معين والفلاس وغيرهما « الكذب » (١) .  
وأخرج ابن ماجة فى سننه لعلى بن حزور بن أبى فاطمة الكوفى ، وهو متروك<sup>(٢)</sup> .  
وعشرات غيرهم من الضعفاء والمتروكين والمجاهيل أخرج لهم أصحاب السنن الأربعة ،  
والبخارى فى غير الصحيح . والأصل فى هذا أن من أسند فقد أحالك . وأدى الأمانة  
كما تحملها .

ومن خلال استعراضى لكتابين مهمين من كتب ابن أبى الدنيا وهما « كتاب  
الصمت » و« كتاب الشكر » لم أراه يذكر فىهما رواية واحدة عن هذين الشيخين  
البلخى والضبى . و« كتاب الصمت » وحده اشتمل على ( ٧٥٩ ) رواية فيظهر أنه  
مقل عنهما .

٢ - ولكن الاعتراض الذى يرد على ابن أبى الدنيا - وهو وجيه - ما ذكره  
الذهبي إذ قال - بعد أن ذكر جمهرة من شيوخه - : « وىروى عن خلق لا يعرفون ،  
وعن طائفة من المتأخرين كىحى بن أبى طالب ، وأبى قلابة الرقاشى ، وابن أبى حاتم  
الرازى ، ومحمد بن إسماعيل الترمذى ، وعباس الدورى لأنه كان قليل الرحلة ،  
فيتعذر عليه رواية الشىء ، فيكتبه نازلاً ، وكيف اتفق » (٣) .

فأما رواية ابن أبى الدنيا عن خلق لا يعرفون فهى حاصلة عنده ، وقد عانيت منها  
معاناة صعبة ، وكنت أمضى الساعات الطوال فى البحث عن شيخ من هؤلاء فلا أجد له  
ذكراً فى كتب الرجال التى بين يدى - رغم كثرتها - . ونسبتهم قد تصل إلى ٥ ٪ فى  
عموم شيوخه فإن البقية غالبهم من رجال الكتب الستة . ولا يتوهم الناظر فى هذا أن  
ذلك يחדش منزلة ابن أبى الدنيا ، أو يطعن فيه . قال الحاكم : « وعيسى بن موسى  
التميمى البخارى الملقب بغنجانار شيخ فى نفسه ، ثقة مقبول ، وقد احتج به محمد بن  
إسماعيل البخارى فى الجامع الصحيح ، غير أنه يحدث عن أكثر من مائة شيخ من  
المجهولين لا يعرفون بأحاديث مناكير ، وربما توهم طالب هذا العلم أنه يجرى فيه وليس  
كذلك » (٤) .

٣ - فأما ما ذكره الذهبى من روايته عن طائفة من المتأخرين ، وذكر جملة منهم -  
وهم من أفضل أهل العصر فى وقتهم - أبو قلابة الرقاشى (ت ٢٧٦هـ) والترمذى

(١) انظر : ابن حجر - تقريب التهذيب : ٢ / ٣٢ . (٢) المصدر نفسه : ٢ / ٣٣ .

(٣) الذهبى - سير النبلاء : ١٣ / ٣٩٩ . (٤) الحاكم - معرفة علوم الحديث : ص ١٠٦ .

(ت ٢٧٩هـ) وعباس الدورى (ت ٢٧١هـ) من طبقة ابن أبى الدنيا ، ومن أقرانه ، وابن أبى حاتم الرازى (ت ٣٢٧هـ) من تلاميذه ، ومن طبقة متأخرة عن طبقته . ولكن هذا الصنيع منقبةً جليلاً ، وليست محلّ نقدٍ ومؤاخذهٍ ، وقد صنعها قبله أمير المؤمنين فى الحديث أبو عبد الله البخارى ، وقد قسم ابن حجر شيوخه إلى خمس مراتب فقال فى الرابعة : « رفاقؤه فى الطلب ، ومن سمع قبله قليلاً » (١) ، وقال فى الطبقة الخامسة : « قومٌ فى عداد طلبته فى السنّ والإسناد ، سمع منهم للفائدة . . . وعمل فى الرواية عنهم بما روى عثمان بن أبى شيبة عن وكيع قال : لا يكون الرجلُ عالماً حتى يحدث عمّن هو فوقه ، وعمّن هو مثله ، وعمّن هو دونه . وقال البخارى : لا يكون المحدث كاملاً حتى يكتب عمّن هو فوقه وعمّن هو مثله ، وعمّن هو دونه » (٢) .

٤ - أما اعتذارُ الإمام الذهبى عن ابن أبى الدنيا فى روايته عن خلقٍ لا يعرفون وعن طائفة من المتأخرين بأنه كان قليل الرحلة ، فيتعذرُ عليه روايةُ الشيء ، فيكتبه كيف اتفق ، فهو اعتذارٌ مقبولٌ ، ولكنه لا يخلو من مبالغة . وذلك لأن ابن أبى الدنيا مشهورٌ بطلبه للعلم ، واجتهاده فى جمعه وتحصيله ، حتى مكنه جدّه وحماسه من أن يصبح حافظاً كبيراً ، ومصنفاً كثيراً .

ومن كانت هذه صفته فإنه لا يكتفى بحديث المشهورين فحسب ، بل يتعداهم إلى غيرهم لعله يجد عندهم زيادات وغرائب . وكذلك كان ابن أبى الدنيا فإنه كان يتصيدُ الوافدين على بغداد من أهل العلم فيسمع منهم ، وفيهم المشهور والمغمور . وقد رأيتُ بعضَ مشايخه لم يتعرض لذكرهم أحد من علماء الرجال سوى ابن أبى حاتم فى كتابه « الجرح والتعديل » وهم من أهل الصدق والأمانة ، وفيهم الثقة ، ولولا ذكرهم فى هذا الكتاب لأدرجوا فى عداد المجهولين .

ونزول الإسناد ليس بمعيب عند المحدثين إذا كان لسببٍ معتبر ، من زيادة أو غرابة أو فائدة . قال الذهبى فى ترجمة إبراهيم بن إسحاق الحربى (ت ٢٨٥هـ) - وهو الحافظُ الإمامُ العلمُ - : « يظهر فى تصانيف الحربى أنه ينزل فى أحاديث ، ويكثر منها ، وهذا يدل على أنه لم يزل طلبةً للعلم » (٣) .

والإمام الذهبى الذى يصف ابن أبى الدنيا بالوصف المتقدم ، ويعتب عليه إكثاره ،

(١) ابن حجر - مقدمة فتح البارى : ص ٤٧٩ .

(٢) المصدر نفسه : ص ٤٧٩ .

(٣) الذهبى - سير النبلاء : ١٣ / ٣٦٢ .

هو نفسه صنع ما صنعه ابن أبي الدنيا ، وأوتى من الإقبال على سماع الحديث والنهمة في طلبه ما جعله يقول عن نفسه في ترجمة علي بن مظفر الإسكندراني (ت ٧١٦هـ) .  
 «ولم يكن عليه ضوء في دينه، حملني الشره على السماع من مثله، والله يسامحه كان يخل بالصلوات، ويرمى بعظائم الأمور»<sup>(١)</sup> وقال عن شيخ آخر من شيوخه: «إنه كان من عوام الطلبة»<sup>(٢)</sup>: بل دفعه حبه للإكثار من الشيوخ أن يسمع من الشيخ محمود بن محمد الخرائطي (ت ٧١٦هـ) وكان به صمم فقال: «قرأت عليه بأعلى صوتي في أذنه»<sup>(٣)</sup>.

٥ - أما اعتذار الإمام الذهبي عن ابن أبي الدنيا فيما تقدمه عليه بأنه كان قليل الرحلة، فإنه غير مسلم . فليس كل من قلت رحلته نزل سنده ، واضطر إلى الرواية عن دونه ، فهناك عشرات من الأئمة والحفاظ ممن صنع صنيع ابن أبي الدنيا ، ولم يرحل ، واكتفى بجمع حديث بلده ، ولأسيما إذا كان بلده يموج بالعلم والعلماء ، كما كان عليه الحال ببغداد وقتها . وممن صنع مثل هذا من الأئمة: الإمام الأخرم أبو عبد الله محمد بن يعقوب النيسابوري (ت ٣٤٤هـ) وهو حافظ متقن قال الذهبي: «وجمع فأوعى، ومع حفظه وسعة علمه لم يرحل في طلب الحديث، بل قنع بحديث بلده»<sup>(٤)</sup>.

وكذلك الحافظ الكبير أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) فإنه لم يرحل عن بغداد لطلب العلم، واكتفى بجمع العلم من شيوخها<sup>(٥)</sup> الوافرين كثرة ، حتى أصبح إماماً كبيراً وحافظاً عظيماً . قال ناصح الدين ابن الحنبلي :  
 «اجتمع فيه من العلوم ما لم يجتمع في غيره»<sup>(٦)</sup>.

وابن أبي الدنيا وإن كان قليل الرحلة لظروف لم تُسعدنا المصادر بمعرفتها فإنه استطاع بفضل توجيهه المبكر من قبل أسرته ، وهمة العالية أن يعوض ذلك ، فجمع أبرز ما في الرحلة من فضل ، وهو غزارة العلم وعلو الإسناد .

فأما تحصيله العلمي وتكوينه فيه ، فإنه كان من أوعيته ، وليس أدل عليه من هذه المصنفات التي وضعها في كل فن من فنون العلم ، وهذه الكثرة الكاثرة من المشايخ الذين سمع منهم ، وقد بلغ عددهم في «كتاب الصمت» وحده أكثر من مائتي شيخ . وكذا في «كتاب العيال» ، وبهذا شهد له الأئمة .

قال القاضي إسماعيل بن إسحاق يوم مات ابن أبي الدنيا : «رحم الله ابن

(١) و (٢) و (٣) د . بشار عواد - مقدمة سير النبلاء : ٢٢ / ١ ، ٢٣ .

(٤) الذهبي - سير النبلاء : ٤٦٧ / ١٥ ، تذكرة الحفاظ : ٨٦٤ / ٣ .

(٥) ناجية عبد الله - مقدمة المصباح المضيء في خلافة المستضيء : ٢٣ / ١ .

(٦) ابن رجب - ذيل طبقات الحنابلة ٤١١ / ١ .

أبى الدنيا مات معه علمٌ كثيرٌ» (١) وشهد له الذهبى بتوسُّعه في العلم والأخبار (٢).  
 أما علوُّ الإسناد فلهُ في «كتاب الصِّمْتِ» و«كتاب العيال» - فضلاً عن غيرهما -  
 أسانيدٌ عاليةٌ ، بينه وبين النبي ﷺ أربعةٌ أنفسٍ ، وقد وصف الذهبى بعضَ حديثه فقال :  
 « حديثه في غاية العلوِّ » (٣).

٦- قال الإمام إبراهيم بن إسحاق الحرى : « رَحِمَ اللهُ أبَا بكرِ ابنِ أبى الدنيا ،  
 كنَّا نَمضى إلى عفانَ نسمعُ منه فترى ابنَ أبى الدنيا جالساً مع محمد بن الحسين  
 البرجلانى خلفَ شريجةً ، يكتبُ عنه ويدعُ عفانَ » (٤).

وعفانُ هذا هو ابن مسلم الصفار أبو عثمان البصرى الحافظُ الثَّبتُ من كبار  
 المُحدثين ، اختلطَ سنة ٢١٩هـ فأنكره الأئمةُ ، قال أبو خيثمة ويحيى بن معين : « أنكرنا  
 عفانَ في صفرٍ لأيامِ خَلَوْنَ منه سنة تسع وعشرة ومائتين » (٥). توفى سنة (٢٢٠هـ) أو  
 قبلها.

ومحمد بن الحسين البرجلانى ، حافظٌ فاضلٌ صاحبُ زهدٍ ورفائقٍ ، وقد تقدمت  
 ترجمته في مشايخ ابن أبى الدنيا .

وعليه فيكونُ سنُّ ابن أبى الدنيا في الفترة التي ذكرها إبراهيم الحرى عشر سنوات  
 أو أقل ، باعتبار أن ابن أبى الدنيا وُلد سنة (٢٠٨) ، وعفانُ اختلطَ أول سنة (٢١٩هـ)  
 وترك الأئمةَ السماعَ منه عند اختلاطه .

وصبى في العاشرة من عمره حقه أن لا يُشارَ إليه بالرواية عن شيخٍ ، وتركه آخرَ .  
 إلا إذا كان نابعةً متفرداً معروفاً بتقدم السماع . ولا أظنُّ أن ابن أبى الدنيا قد بلغ ذلك  
 وهو في هذه السن المبكرة .

وأرى أن لتوجيه أبيه أثراً كبيراً في ميله إلى البرجلانى دون عفانَ لاهتمام أبيه  
 بأحاديث الزهد والرفائق ، كما هو ظاهرٌ من الأحاديث والروايات التي أوردها عنه في  
 «كتاب الصمْتِ» . إذ يُستبعد على ابن أبى الدنيا وهو في مثل هذه السن المبكرة

(١) الخطيب - تاريخ بغداد : ٩٠/١٠ ، ابن حجر - تهذيب التهذيب : ١٣/٦ .

(٢) الذهبى - سير النبلاء : ٤٠٠/١٣ .

(٣) الذهبى - تذكرة الحفاظ : ٦٧٩/٢ ، وانظر فصل « أهمية كتاب الصمْتِ » . من الباب الثانى ، والبحث  
 الثالث من القسم الدراسى من « كتاب العيال » .

(٤) الخطيب - تاريخ بغداد : ٩٠/١٠ وفيه « تكتب عنه وتدع عفان » ، ابن حجر - تهذيب التهذيب : ١٣/٦  
 والنص له .

(٥) الذهبى - سير النبلاء : ٢٥٣/١٠ ، ٢٥٤ ، وانظر ترجمته هناك فإنها حافلة .

الاستقلالية في التوجه ، وإمكانية التمييز بين الشيوخ .

وعلى هذا فانتقاد إبراهيم الحربي لابن أبي الدنيا ضرباً من المبالغة وتحميل الصبى فوق طاقته . بل إن انتقاده يحمل في ثناياه منقبة لابن أبي الدنيا للدلالة على أمرين نافعين .

أولهما : تكيّره في طلب العلم .

وثانيهما : أنه كان معتبراً وملحوظاً عند المحدثين وعمره عشر سنين ، أو دون ذلك .

وهاتان فائدتان عزيزتان لم أجدهما عند أحد ممن ترجمه . وربّ ضارة نافعة .

رحم الله علماء الأمة ، وأثابهم على حزمهم جزيل الثواب .

وفي الختام أعود إلى ماقلته في بداية هذا الموضوع : أن بعض هذه المؤخذات وإن

كانت مبالغاً فيها ، فإنها واردة على ابن أبي الدنيا ، وإنما كان نقدُها محاولة لوضعها

في إطارها الصحيح ، وإعطاءها حجمها من غير تهويل أو تساهل .

وعلى هذا فإن بعض ما قاله الذهبي في ابن أبي الدنيا صحيح ، فقد رأيت له أصلاً

من خلال دراستي لكتاب «الصمت» و «الأشراف» و «العيال» ولكنها شواهد نادرة

جداً .

إذ أننا رغم كل ما قدّمناه من الدفاع عنه فإن قلة الرحلة عند ابن أبي الدنيا أضرت

به كثيراً ، فاضطر إلى رواية بعض الأحاديث الصحيحة الثابتة من طريق شيخ فيه كلام ،

لأنه فاتته سماعه من حافظ ثقة ، فلما احتاج إليه اضطر إلى روايته كيفما اتفق . وهذا قليل

جداً - كما ذكرت - ، ولعله أراد أن يخرج من طريق آخر ، فيه غرابة أو نكتة زائدة ، فإنه

حافظ كبير ، ونصف شيوخه أو أكثرهم من شيوخ البخاري ومسلم والله أعلم .

والذي يشفع لابن أبي الدنيا أنه ضم إلى كونه محدثاً ، مهمة إصلاح المجتمع

الإسلامي فكان حامل لواء الأخلاق والمثل ، وكان مؤرخاً (١) يتتبع الأخبار والسير ، وكان

أديباً مولعاً بالشعر والأدب ، وزاهداً عابداً يتتبع أخبار الزهد والرقائق . ومن كثرت

اختصاصاته خف تركيزه . ورغم هذا فابن أبي الدنيا إمام علم في هذه الفنون جميعها .

ويكفيه ما خلف فيها من الآثار ، والتي تعد مفخرة له ، ومفخرة لسلفنا وتراثنا وديننا .

رحم الله علماء سلف الأمة ، وبارك في خلفها وألحقنا بال صالحين منهم .

(١) السخاوي - الإعلان بالتبويخ : ص ٤٢٣ و ٤٢٦ ، روزنثال - علم التاريخ : ص ٦٨٦ و ٦٩٠ .

obeikandi.com

## المبحث الرابع آثاره العلميّة

أولاً : تلاميذه :

لقد كان لتبكير ابن أبي الدنيا ، وهمته العالية في تتبع العلماء والتحمل عنهم أثرٌ بالغٌ في جعله من أوعية العلم ، ورائداً من رواه ، فأصبح الحافظ الكبير ، والمصنف المكثّر الذي يؤمّه طلبه العلم من كل بلاد الإسلام ، يرحلون إليه ليسمعوا منه ، ويتنفّعوا من زهده وصلاحه وتأديبه وقد عمّر حتى سمع منه عددٌ هائل من أهل العلم وأبنائه ، فتخرج به في الحديث جمٌ غفير من الطلبة .

قال ابن تغرى بردى : « والناس بعده عيال عليه في الفنون التي جمعها ، وروى عنه خلق كثير » (١) .

وعدّ له الحافظ المزى من أسماء تلاميذه مُرتبّين على حروف المعجم - خمساً وخمسين تلميذاً (٢) .

كما ذكر له الذهبي سبعة وعشرين تلميذاً على سبيل المثال لا الحصر (٣) .

ومن مآثر هذا الإمام أنّ الحارث بن أبي أسامة (ت ٢٨٢هـ) أحد شيوخه - أخذ عنه وتلمذ له (٤) .

كما سمع منه كبارُ المحدثين والفقهاء ومن أصبحوا أعلام العصر وحفّاظه كابن أبي حاتم (ت ٣٢٧هـ) ، وابن خزيمة (ت ٣١١هـ) ، والقاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠هـ) ، وإبراهيم بن الجنيد - ومات قبله - (ت ٢٧٠هـ) ، وأبى بشر الدولابي (ت ٣١٠هـ) ، وأبى العباس ابن عقدة (ت ٣٢٢هـ) ، وخلق كثير .

١ - الصّفّار : الشيخ الإمام المحدث القدوة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن

(١) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة : ٨٦/٣ .

(٢) المزى - تهذيب الكمال : ٧٣٦/٢ نسخة دار الكتب المصرية .

(٣) الذهبي - سير أعلام النبلاء : ٣٩٩/١٣ ، ٤٠٠ . (٤) المصدر نفسه : ٣٩٩/١٣ .

أحمد الأصبهاني الصَّفَّار الزاهد<sup>(١)</sup> .

سمع تصانيف ابن أبي الدنيا ببغداد ، واستفاد منه ، وتأثر بمسلكه ، فصحب بعد ذلك الأولياء والعباد ، وجمع رُصنفاً .

قال الحاكم : هو محدث عصره ، كان مجاب الدعوة ، لم يرفع رأسه إلى السماء - كما بلغنا - نيفاً وأربعين سنة .

حدَّث عنه أبو عبد الله الحاكم ، الحافظ ابن مندة وغيرهما . توفي سنة ٣٣٩هـ وله ٩٨ سنة .

٢- ابن صفوان<sup>(٢)</sup> الشيخُ المُحدِّثُ الثقة ، أبو علي الحسين بن صفوان بن إسحاق البردعي .

صاحبُ أبي بكر ابن أبي الدنيا وراوى كتبه<sup>(٣)</sup> ، رافقه واستفاد منه . وهو الذى روى « كتاب الصَّمت » عن المصنف ، وأذاعه ، والنسختان الموجودتان من الكتاب واللذان اعتمداهما فى تحقيقنا من طريقه - رحمه الله - كما حدَّثَ عنه بكتاب « مُجَابَى الدعوة » و « الفرج بعد الشدة » و « ذم المسكر » و « ذم البغى » و « ذم الفحش » و « ذم الغضب » و « حسن الظن بالله » و « اليقين » و « الذكر » وغير ذلك كثير . قال الخطيب : كان صدوقاً .

سمع منه منصور بن عبد الله الخالدى ، وأبو الحسين بن بشران وغيرهما ، توفي سنة ٣٤٠هـ ببغداد ، والبردعي : نسبة إلى عمل البردعة .

٣- قاسم بن أصبغ<sup>(٤)</sup> بن محمد الإمام الحافظ العلامة محدث الأندلس ، أبو محمد القرطبي ، مولى بنى أمية .

سمع ابن أبي الدنيا ، وانتفع منه ، وانتهى إليه علوُ الإسناد بالأندلس ، مع الحفظ

---

(١) أبو نعيم - ذكر أخبار أصبهان : ٢٧١/٢ ، ابن الجوزى - المتظم : ٣٦٨/٦ ، الذهبى - سير أعلام النبلاء : ٤٢٧/١٥ ، والعبر : ٢٥٠/٢ ، السبكي - طبقات الشافعية : ١٧٨/٣ ، ١٧٩ .

(٢) الخطيب - تاريخ بغداد : ٣٤/٨ ، الذهبى - سير أعلام النبلاء : ٤٤٢/١٥ ، العبر : ٢٥٣/٢ ، ابن العماد - شذرات الذهب : ٣٥٦/٢ ، ٣٥٧ .

(٣) ابن خير الأشيبلى - فهرسة ابن خير : ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٤) ابن الفرضى - تاريخ علماء الأندلس : ٣٦٤/١ - ٣٦٧ ، الذهبى - سير أعلام النبلاء : ٤٧٢/١٥ ، وتذكره الحافظ : ٨٥٣/٣ - ٨٥٥ ، والعبر : ٢٥٤/٢ ، ٢٥٥ ، ابن فرحون - الديباج المذهب : ٢٢٢ .

والإتقان ، وبراعة العربية ، والتقدم فى الفتوى والحرمة التامة والجلالة .

صنف سنناً على وضع سنن أبى داود ، وصحيحاً على هيئة صحيح مسلم ، وألّف كتاب «بر الوالدين» و «مسند مالك» و «المنتقى فى الآثار» وكتاب «الأنساب» .

أثنى عليه غير واحد ، وتألّف ابن حزم ، وابن عبد البر ، وأبى الوليد الباجى طافحةً بروايات قاسم بن أصبغ .

حدث عنه خلقٌ كثير منهم عبد الله بن محمد الباجى ، والقاضى محمد بن أحمد ابن مفرج وغيرهم .

مات بقرطبة سنة ٣٤٠هـ ، كان من أبناء التسعين .

٤- الجلاب<sup>(١)</sup> الإمام المحدث القدوة أبو محمد عبد الرحمن بن حمدان بن المرزبان الهمداني الجزاري ، أحد أركان السنة بهمدان .

سمع أبا بكر بن أبى الدنيا وتخرج به . فأصبح قدوة كبير الشأن له أتباع .

حدث عنه أبو عبد الله بن منّدة ، وأبو عبد الله الحاكم ، وأبو الحسين ابن فارس . توفى سنة ٣٤٢هـ .

٥- النّجاد<sup>(٢)</sup> الإمام المحدث الحافظ الفقيه المفتى ، شيخ العراق ، أبو بكر أحمد بن سلمان بن الحسن البغدادي - الحنبلي النّجاد .

سمع أبا بكر بن أبى الدنيا ، وأخذ عنه مُصنّفاته وحدث بها ، وهو الذى روى كتاب «الشكر» عن أبى الدنيا<sup>(٣)</sup> . واستفاد منه الزهد والورع . فكان النّجاد يصوم الدهر ، ويفطر كل ليلة على رغيف فيترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق برغيفه ، واكتفى بتلك اللقم . قال الخطيب البغدادي : « كان النّجاد صدوقاً عارفاً ، صنّف السنن ، وكان له بجامع المنصور حلقة قبل الجمعة للفتوى ، وحلقة بعد للإملاء » .

صنّف ديواناً كبيراً فى السنن ، وتوفى سنة ٣٤٨هـ .

(١) الذهبي - سير أعلام النبلاء ٤٧٧/١٥ ، والعبر : ٢٦٠/٢ ، ابن العماد - شذرات الذهب : ٣٥٧/٢ .

(٢) الخطيب - تاريخ بغداد : ١٨٩/٤ - ١٩٢ ، ابن أبى يعلى - طبقات الحنابلة : ٧/٢ - ١٢ ، الصفدى - الوافى بالوفيات : ٤٠٠/٦ .

(٣) ابن خير الأشبيلي - فهرسة ابن خير : ٢٨٣ .

## ثانياً : مؤلفاته :

كان من ثمار جهاد ابن أبي الدنيا الطويل فى طلب العلم، منذ صغره ، وسعيه الخيـث وراء الأئمة ليتحمّل عنهم، ويسمع منهم ؛ أن جمع هذا العلم الوافر الغزير، وصبّه فى تأليفه الكثيرة . فأبانت كثرةُ مصنّفاته عن عظيم العلم الذى تمكّن من تحصيله وجمعه .

قال ابن كثير : « الحافظ المصنف فى كل فن ، المشهور بالتصانيف الكثيرة النافعة الشائعة الذائعة فى الرقاق وغيرها » (١) .

وقال : الخطيب : « صاحب الكتب المصنفة فى الزهد والرقائق » (٢) .

وقال الكتبى : « أحد الثقات المصنّفين للأخبار والسّير » (٣) .

وقال المسعودى : « وقد ألّف الناسُ كتباً فى التاريخ والأخبار عن سلف وخلف » (٤) . ثم عدّه منهم .

وقد تبين لى من خلال دراستى لمصنّفاته وآثاره أنه مشارك فى أنواع العلوم، بارع فيها، إلا أنه طغى على مصنّفاته صنفان من العلوم صنّفَ فيهما غالب مؤلفاته. وهما :

١ - الزهد والرقائق .

٢ - التاريخ والأخبار والسّير .

وهما مجال تخصصه ومحطّ عنايته ، لذا أبدع فيهما غاية الإبداع ، وجمع فيهما علماً عزيزاً غزيراً، أصبح مصدراً مهماً لكلّ من كتب وصنّف فى هذين الفنّين . قال ابن تغرى بردى : « وله التصانيف الحسان ، والناس بعده عيال عليه فى الفنون التى جمعها » (٥) .

وقد اطّلع على تصانيف ابن أبي الدنيا جمهورٌ كبيرٌ من المؤرخين والعلماء والأئمة المشهورين ممن جاؤوا بعده (٦) . حتى إن الناظر فى قائمة الكتب التى أقبل عليها الخطيب

(١) ابن كثير - البداية والنهاية : ٧١/١١ .

(٢) الخطيب - تاريخ بغداد : ٨٩/١٠ .

(٣) الكتبى - فوات الوفيات : ٤٩٤/١ .

(٤) المسعودى - مروج الذهب : ٢٠/١ ، ٢١ .

(٥) ابن تغرى بردى - النجوم الزاهرة : ٨٦/٣ .

(٦) منهم الإمام المعافى بن زكريا الجريرى القاضى (ت ٣٩٠ هـ) فى كتابه « الجليس الصالح الكافى » ق ٢٩ب ، ٤٤ب ، ٤٧ب ومواضع أخرى ( ذكره الدكتور أكرم العمرى فى « موارد الخطيب » ص ١٦١ ) .

والحاكم فى « المستدرك على الصحيحين » ٣٧٥ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٧ - روايتان ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، =

البغدادي ، واعتني بها ، يجد الحظ الأوفر فيها لكتب ابن أبي الدنيا ، فلم يقرأ لعالم من المصنفات مقدار ما قرأ لابن أبي الدنيا ، فقد تمكن من سماع (٣٩) مصنفاً من مصنفاته ، مما حدا بالدكتور يوسف العث أن يقول : « ولعل القارئ انتبه إلى مكانة ابن أبي الدنيا عند الخطيب ، وحرصه على جمع رواية كل آثاره ، حتى كاد يستوفيهما جميعاً (١) . ولعل أبا بكر الخطيب أقبل عليه لسعة اطلاع وجده عنده ، وحسن معرفةٍ لمسها في مؤلفاته ، وتعرض لموضوعات انفرد بها عن غيره » (٢) .

ومن خلال نظرة سريعة في فهارس المخطوطات المبثوثة في شرق العالم وغربه ، وفي إثبات العلماء ومعاجمهم ، وكتب التخريج والتوثيق ، وغير ذلك من الدواوين والمعاجم نجدها طافحة بذكر مصنفات هذا الإمام المكثر .

ولهذه المكانة الطيبة التي احتلتها مصنفات ابن أبي الدنيا في التراث الإسلامي ، دفعت بعض الأئمة إلى جمع مصنفاته . مثل ابن النديم في « الفهرست » ١٨٥ / ١ ، والذهبي في « سير النبلاء » ٤٠١ / ١٣ - ٤٠٤ ، وابن خير في « فهرسته » ص ٢٨٢ - ٢٨٤ ، وحاجي خليفة في « كشف الظنون » والبغدادي في « هدية العارفين » ٤٤١ / ٥ ، ٤٤٢ ، والكتاني في « الرسالة المستطرفة » ص ٥٠ ، وغيرها ، كما صنع له أحد

---

= ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ في « السنن الكبرى » ٦٨ / ٥ ، ١٠١ / ٦ ، ٢٣٢ / ٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ روايتان ، ٢١٢ / ١٠ . روايتان ، ٢١٥ ، روايتان ، ٢١٦ . روايتان ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ست روايات .

والخطيب في « تاريخه » وقد اقتبس من ابن أبي الدنيا (٧٧) نصاً ، وكان مهتماً بمصنفات ابن أبي الدنيا حتى حاز منها على مجموعة كبيرة بلغ عددها (٣٩) مصنفاً .

كما اقتبس منه الخطيب البغدادي في كتبه الأخرى « كشرح أصحاب الحديث » و « اقتضاء العلم للعمل » و « موضح أوامير الجمع والتفريق » و « الفقيه والمتفقه » و « الكفاية » وغيرها ( انظر : موارد الخطيب للدكتور أكرم العمري : ص ١٥٩ ، ١٦١ ) .

والمصنفح لكتاب « الحلية » يجد مئات النصوص المروية من طريق الحافظ ابن أبي الدنيا . فإن أبا نعيم الأصبهاني الحافظ كاد أن يجعل ترجمة « سفيان الثوري » كلها من طريق ابن أبي الدنيا . والإمام ابن الجوزي في « المصباح المضيء في أخبار المستضيء » ، حتى بلغت اقتباساته خمسون موضعاً . ( انظر : مكانته العلمية - المبحث الرابع من هذه الرسالة ) .

والإمام ابن عساکر في « تاريخ دمشق » وابن كثير في « البداية والنهاية » والذهبي في « تاريخ الإسلام » وابن حجر في « تهذيب التهذيب » و « الإصابة في تمييز الصحابة » وغير ذلك . ( انظر : موارد الخطيب - للعمري : ص ١٦١ ) .

(١) وهو بعيد ؛ لأن مصنفات ابن أبي الدنيا تربو على المائتين .

(٢) د . يوسف العث - الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها : ص ١٤٧ .

المحدثين معجماً لمصنفاته رتبها على حروف المعجم وضمته مائة وأربعة وستين كتاباً (١).  
ودائرة المعارف الإسلامية ١/١٩٨ - ٢٠٠ ، وبروكلمان في « تاريخ الأدب العربي »  
ذيل ١/٢٤٧ ، ٢٤٨ .

وبعد اطلاعنا على هذه المصنفات كلّها وغيرها من كتب المعاجم والتراجم رأينا  
أوعبها وأجودها ما في « سير النبلاء » للحافظ الذهبي وقد عدّ له (١٦٢) كتاباً ،  
و « معجم مصنفات ابن أبي الدنيا » الموجود بالمكتبة الظاهرية ، وقد عدّ له (١٦٤) كتاباً .  
وقد تحصّل لدى من أسماء مصنفاته - وذلك بعد التتبع في فهارس المخطوطات  
وكتب المعاجم والتراجم ، بالإضافة إلى مذكرناه - (٢١٧) مؤلفاً .

وقد صنعت كشافاً مفصلاً لهذه المصنفات رتبته حسب موضوعاته ، انظره بتمامه  
في القسم الدراسي لكتاب « الصمت وآداب اللسان » بتحقيقنا ، ص ٨٧ - ١١٠ طبعة  
دار الغرب الإسلامي بيروت . فإنه يغني عن تكراره هنا .  
وقد تجمعت لدى - فوق ما ذكرت هناك - زيادات وفوائد لعلّي أنشط لنشرها قريباً  
إن شاء الله تعالى .

---

(١) معجم مصنفات ابن أبي الدنيا « مجهول المؤلف » ، منه نسخة في الظاهرية بدمشق رقم ٤٢ مجاميع .  
وقد أخرجه الدكتور صلاح الدين المنجد في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، المجلد ٤٩ سنة ١٩٧٤  
ص ٥٧٩ - ٥٩٤ . وضم له زيادات من سير النبلاء ، والفهرست ، وابن خير ، والكشف ، وهدية  
العارفين ، فبلغ مجموعها (١٩٨) كتاباً ، وهو جهد مشكور أفدنا منه ، وقد فاته أشياء فيه ، ولكن يبقى  
له فضل السبق .